بأي ذنب... !!

رواية

محمد بشير

بأي ذنب... !!

رواية

بسم الله الرحمن الرحيم

المثقف للنشر والتوزيع

نوع العمل: رواية

اسم العمل: بأي ذنب... !!

اسم المؤلف: محمد بشير

تصميم الغلاف: زكرياء رقاب

تنسيق وإخراج: محمد بشير

تدقيق لغوي: ليلى عامر

رقم الإيداع: 2018/ السداسي الثاني

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9947 – 79 - 154-7-

الناشر: دار المثقف للنشر والتوزيع

المدير العام: سميرة منصوري

هاتف / فاكس 033 85 65 75 06 75 49 73 86

صفحة الدار: https://www.facebook.com/elmothakaf/

صفحة الكاتب: https://www.facebook.com/mohamedbachir13

الطبعة الثانية 1440 هـ -2019 م

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع

محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن من الناشر.

مقدمة المؤلف:

منذ ثلاث سنوات، حينما كنت أحضر لعملي الورقي الأول سرا والذي كان يتحدث عن عصابة تجارة الأعضاء البشرية. أرسل لي أحد الأشخاص في صفحتي الرسمية المسماة آنذاك كتابات شاب حالم. أعجب بأسلوبي وطلب سرد قصته على صفحتي. وجدت نفسي أتعلق كثيرا بتفاصيل قصته التي ألهمتني جدا وعلمتني دروسا في الصبر. رقت عيناي حزنا لما عاشه وتزعزت مشاعري، كانت الحكاية أعمق من أن أضيع تفاصيلها في صفحتين فقط. وجدتني أغير من السيناريو الأصلي حرفيا وأحذف جميع الصفحات السابقة. عشت قصة البطل الذي غيرت اسمه حفاظا على الأسرار العائلية كما لو أنني بطلها، فراح القدر يسوقني من أستاذ جامعي بجامعة باريس إلى مستهدف من قبل أعضاء تنظيم الدولة الإسلامية. شعرت بمعاناته رفقة المسلمين المغتربين مع الإسلاموفوبيا منذ استهداف تنظيم الدولة الإسلامية لفرنسا في أسوء فترة من تاريخها ابتداء من هجمات الصحيفة الساخرة شارلي ايبدو بباريس. أتمنى من الله عز وجل أن يكون قد وفقني ولو بالقليل بكتابة تاريخ الشاب المناضل عبد الهادي وزوجته الصبورة فاطمة، وتترك هذه الحكاية أثرا في نفس كل قارئ كما فعلت بي.

محمد بشير

إهداء

إلى الأحبة الكثر الذين إن سميتهم سأملأ عدة صفحات بأسمائهم، عذرا لا أستطيع ذكركم لكنكم في القلب دائما...

إلى بطل القصة عبد الهادي، الذي أبى إلا أن يشاركنا ألمه، وما ارتشفه من قطرات الحزن حد النخاع في فرنسا، قصتك ستكتب بدم القلب لا بحبر القلم، وسيعلم بك العام والخاص!

بأيّ ذنب ...!!!

جملة تعجبية كثيرا ما تراود أحاسيسنا، مداعبة أرواحنا، حروف نجعلها دائما حليفة في معاركنا الّتي نقحم فيها أنفسنا، ونخرج منها مهزومين، نادبين تعاستنا، جملة نجعلها شفيعة لنا دائما، محامية لأعمالنا المشينة الّتي ارتكبناها متغافلين عن الحساب.

إن لم نحاسب أنفسنا، سيأتي من سيحاسبنا يوما ما أكيد، فنحن لو وقفنا ضدّ أنفسنا بصرامة، وقفة شديدة حيادية، غير عنصرية، لم نكن لنجزع يوما بحظّنا التّعيس المرسوم بعقلنا، ولم نعب القدر والعيب فينا، ولم نكن لنتعجّب متسائلين: بأيّ ذنب...!

قطراتُ دمٍ متناثرة في بلاط الغرفة، روح بريئة أزهقت من مرتزقة عاشقين لقتل وسلب الأرواح، جسد ذو رأس متدلٍّ مداعب ركبتي اليسرى، روح تصرخ في صمت مستنجدة منقذها، راجية ذاك الشّبح الأسود حتّى يخلّصها من ألمها مقدّما حرّيتها على طبق من إغتصاب....

شبح خبيث يترقّب ضعف ضحاياه، يستطعم أجسادهم، مستنزفا قطرات أرواحهم الضعيفة بدمه البارد القوي الخالي من كريّات الرّحمة، قواه تكمن في وهن ضحاياه واستسلامهم للموت.

وبعد دقائق كانت كالسّنين لها، ها هي تضعف أمامه وتخضع لطلباته بكل يأس، بعد معركة ضدّ حرب الصّمود...

لم يكن منه سوى أن أدخل أصابع يده في جوف ضحيّته الضعيفة، مقتلعا قلبها بكف يد خالية من تجاعيد الشّفقة، مستطعما ذوق روحها بلسانه الأسود، شاعرا بالنّشوة مع كلّ دقيقة يمتصّ فيها دماءها المتخثّرة على صدرها، لتنتهي في الأخير معركته ضدّها بفوزه بعد أن فاضت روحها، فبأيّ ذنب قتلت.... ؟

الفصل الأوّل

بين الشّعور بالموت والحياة، بالأمل واليأس، بالشّجاعة والجبن، بالتّفاؤل والتّشاؤم، بالحبّ والكره، بالحنان والقسوة، بالقوّة والضّعف، أرواح تزهق، أجساد تسلب، قلوب تجرح، ويأتي الفقد بما لا تشتهي القلوب، إذا عرف أصل الشّعور، سهلت مهمّة القلب في قراءة بواعثه، القلب الّذي يتمكّن دوما لما يهوى، ولا يبرح موضعه من الإحساس...

القلب الّذي يتقلّب بفعل ذلك الهوى، حديثه اللّين والعاطفة، مهما عصفت به تبعات ذلك الشّعور، فكلّما كان القلب محبّا صافيا نقيّا، أجاز للشّعور تملّكا أعظم منه، وذلك لأنّ بوصلة الشّعور هي صفاء للنّفس.

وإذا ما بحث الإنسان وراء شعور الفقد، وتتبّع بواعثه، وقرأ ما وقع في القلب منه ،وجد بأنّ الفقد نقص يعتري الإنسان الفاقد، وشقّ في القلب يتوغّل في أعماق لا يصاحبها بوح ولا كتمان، يخدّر ألمه يقينا بحكمة الله تعالى في الفقد، وينتظر توافد الأيّام وتداول السّنين عساه يشفى، لأنّ ذلك النّقص تأنّ له أعماق الرّوح ، فيرتدّ صداه مدويا كما لو كان الأذى فيه ماديا بحقّ، فيناقض معنوية الرّوح ومعنوية الأذى، فيأبى الفراق بكلّ نقصه إلّا الهيمنة على كلّ شعور آخر، حتّى يسقط كلّ شعور عداه، مستوفيا بذلك شروط الإقامة الجبرية في القلب، متربّعا على عرشه كما يتربّع الملك على حاشيته، متمكّنا من دقّاته المتسارعة كرقّاص ساعة، الدّقيقة فيها

كسنة ،ليلها مدّ ونهارها جزر، ولنا في الفراق عظات، والعظات الأجدى تلك الّتي يثبت بها الفؤاد ويصمد أمام فجيعته و وجيعته، إن استطال العمر أو قصر...

جمع غفير يتفرّس قائمة النّاجحين في جوف حلقة أمل مفرغة، عديد فتيات متجمّعات حول القائمة، لابدّ من الصّبر وانتظار تبعثرهنّ من المكان، وكلّي طموح وأمل في جرعة سرور، لطالما انتظرت فرصتها في الامتلاء.

اقتربت من القائمة بارتجاف شديد في ركبتيّ، واضعا خطواتي الأشبه بخطوات النّملة الخائفة البائسة، ومع كلّ خطوة أضعها على الأرض، يتزايد حجم المغص بأحشاء بطني، وتتكاثر جراثيم الضّيق التّنفسيّ بقفصي الصّدري رغبة في استعماره...

تنهّدت قليلا طاردا عبر ذلك الزّفير ذرّات الخوف الّتي تزاحم ذرّات الأكسيجين برئتيّ، سمّيت الله رافعا بذلك من حجم جرعة التّفاؤل بجسدي، ها أنا أحدّق وأعيد، ولا وجود لاسمي بين النّاجحين، وكأنّ غشاء من العمى قد حجب بصري...

مسحت بكفّ يدي الأيمن حبّات العرق تلك الّتي تبلورت حول جبيني، ثمّ أعدت التّحديق مجدّدا ملامسا أسماء النّاجحين بأصبعي المرتجف صعودا ونزولا...

وفجأة انفجر بركان الأحاسيس بقلبي، لينثر حمم السّرور بجفوني كما تنثر العواطف أحاسيسها في شغاف السعادة، حمم على

شكل دموع فرح داعبت خدّيّ الذّابلتين المرهقتين من الأمل، تبدّدت مشاعري أمام تلك الأحاسيس المرهفة، فلم يكن منّي إلّا وأن هويت بجسدي إلى الأرض ساجدا لربّ السّماوات والأرض، شكرا وحمدا على النّعمة الّتي سقطت عليّ كالعاصفة الهوجاء.

وعلى حين غرّة تراءت لي ملامح أمّي بمخيّلتي، أمّي الّتي تنتظر بفارغ الصّبر نسمات البشارة من ابنها، بعد أن ملأت عروق التّفاؤل بصدري صباحا قبل خروجي بكلماتها الساحرة، فقد قالت لي بصوت تمازجه نغمات حنان، حبّ وأمومة:

- يا بنيّ كان الله معك، وبإذنه تعالى ستكون من النّاجحين، وتجد اسمك مدوّنا في القائمة، إن قدّر الله وشاء، ووضعك بين النّاجحين فاحمد ربّك واشكره غير مغترّ بنفسك، ولا تترك أيّ مجال للشّيطان ولو ثقبا صغيرا يستطيع التّسلّل منه اليك، و يتلاعب بك بزيادة بقع الغرور في قلبك، وتضخيم ذرّات الكبر بصدرك، افعل هكذا لكي لا تكسر روحك، وتجد نفسك محطّما بدوّامة الخسارة، فالغرور مقبرة العلماء بنيّ، وإن لا قدّر الله ولم يكن النّجاح حليفك، فلا تقنط من رحمة الله الواسعة الّتي تفوق حدود صبرك، قل: قدّر الله وما شاء فعل، وضع للثّقة حيّزا كبيرا بصدرك، واجعلها تنتشر في كلّ أعضاء جسمك كسرطان لطيف، وتأكّد بأنّ الخيرة فيما اختاره الله، ومن يتّقه يجعل له من كلّ ضيق مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب...

طرقة خفيفة على باب المنزل فقط، كانت كفيلة لينفتح على ملامح أمّي الجوهريّة وعينيها الجميلتين الشّبيهتين بعيون اللّؤلؤ، المكحولتين بالنّور المنبثق من صدرها، حدّقت إليّ قليلا بحدقة عين متّسعة دون أن تنبس ببنت شفة، فلم يكن منّي إلّا وأن اقتربت منها، وبصوت يضارع فرحة الأزهار بقدوم فصل الرّبيع صرخت:

- لقد نجحت يا أمّي... لقد نجحت.

أمسكت رأسي ووضعته على صدرها، وغمست كياني بين أحضانها كما تغمس البذور نفسها بين أحضان حبيبات التراب، ثمّ وضعت في صدري تذكرة سفر لعالم فائق الرّوعة، عالم حدائقه أحضان، مياهه أمل، أشجاره سعادة وورده حنان، عالم تحكمه ملكة وحيدة وما أعظمها ملكة...؟ !

*****

هي أنت أمّي

هي...

أرواح في شغاف قلبنا عمرتْ،

حنان بزهر الجمال تطيّبتْ،

عيون لراحتنا سهرتْ،

برائحة الياسمين تعطّرتْ،

ثوب البهاء ألبِستْ،

رحيق الأمومة أُسكِبتْ،

نضارة نور وجهها أُسحِرتْ،

هوائي الّذي إن لم أستنشقه اختنقتْ،

شمسي الّتي إن تأمّلتها انتعشتْ،

مطري الّذي إن احتجب عنّي ذبُلتْ

أنت...

عن مواطن أسراري يا حبيبتي نقّبتِ،

دخلتِ بصيرتي وفؤادي استوطنتِ،

فاسلبي روحي واستعمريها إن أردتِ،

أينما جلتُ نور وجهك بعيني شَعْشعتِ،

ورود في جوٍّ عاصفٍ بنعومتك لها سقيتِ،

خدودك محمرّةٌ حمرةً كأنّها عصير التّوتِ،

أنت...

إن فكّرتُ بالهجرة لبقاع الدنيا فأنتِ طرقاتي،

احتلّتني روحك، وإن طالت عنك مسافاتي،

بعد قراءتك ما كتبت، ستظنّين أنّها لحبيبتي،

سأحدّق مليا بعينك قائلا إنّها لك عزيزتي

أمّي ...

ستصمتين فألمس خدّك وأقول:

إنّها لك يا والدتي،

نعم أنت يا أمّي... ومن غيرك أنتِ؟

رعاك الله لي يا ربّ، وأدامك بحياتي،

جازاك الله وأدخلك فسيح الجنّات،

*****

وبينما أنا منغمس سارح في سهول جنّة أمّي الواسعة أتنعّم بكلّ دقيقة تغمرني سرورا، حنانا وأملا، فاجأتني أحاسيس مزعجة مزاحمة سعادتي، تهزّ عواطفي على حين بغتة، أرواح شرّيرة متشائمة لامست ذاكرتي المندسّة بين طيّات النّسيان، وأرشيفات الماضي، لتنتقل عبر جهازي العصبيّ إلى محطّة صدري الأيسر، أين توقّفت هنالك، ثمّ نزعت سروري وكأنّها حسدت فرحتي المؤقّتة ...

منذ سنة، وتحديدا في اليوم الرّابع من شهر رمضان المبارك، سافر والدي إلى ولاية سيدي بلعباس لدوريّته في التّفتيش، فقد كان مفتّشا لمادة العلوم الطّبيعيّة في الطّور الثّانوي، وبمجرّد تلقّيه دعوة

من المديرية للذّهاب لمؤسّسة ما، يلبّي النّداء بصدر رحب، فهو يحبّ مهنته كثيرا ولا يفرّط في حقّها مطلقا.

بعد أن ساعدت أمّي في تحضير الفطور ووضعه على طاولة الأكل، جلسنا ننتظر الاذان بفارغ الصّبر، بشغف كما تنتظر الأمطار انتهاء فصل الصّيف، وبعد هنيهة تحدّثت أمّي بصوت متمازج بين حيرة وسرور:

- بني، هاتفك يرنّ... أعتقد أنّه أبوك...
- هه! لم أسمعه يا أمّي، سأجلبه ونرى...

مسكت الهاتف لأبصر رقم والدي فلم يكن منّي إلّا وأن فتحت الخطّ مبادرا بالرّدّ:

- السّلام عليكم أبي، تقبّل الله منّا ومنكم.

لأتفاجأ بصوت تتموّج في مقاطعه نغمات خشنة غريبة عن مسامعي:

- وعليكم السّلام ورحمة الله تعالى وبركاته. هل أنت عبد الهادي؟
- نعم أنا هو، من المتّصل؟
- قد وجدنا رقمك مدوّنا كآخر رقم اتّصل به السّيد عامر، لذلك سارعت بالاتّصال بك، هل يمكنك إخباري بمدى قربك للسّيد عامر؟

- إنّه والدي، من فضلك أخبرني ما الّذي حصل؟ هل أضاع والدي هاتفه؟

صمت لبضع ثوان قبل أن يأتيني ردّه:

- معك الدّكتور أحمد، يؤسفني إعلامك بأنّ السّيد عامر لدينا في المستشفى...

توجّست في نفسي خيفة ماسكا بصدري في فزع شديد، حرّكت شفتي والغصّة تقطع صوتي قائلا:

- هه...؟ مستشفى؟ وما الّذي أخذه للمستشفى؟
- للأسف، تعرّضت الحافلة الّتي ركبها والدك لحادث مرور على الطّريق السّريع بولاية سيدي بلعباس، قبل الدّخول للمحطّة، إبتعدت الحافلة عن مسارها وانقلبت بعد الاصطدام بشاحنة نقل بضائع...

همست محرّكا شفتي بصوت عميق، حزين، نابع من صميم الكبد مقاطعا:

- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، وأبي هل هو بخير؟
- للأسف... نزف الكثير من الدّم من ركبته اليسرى، ممّا أدّى إلى فقده الوعي، هو بالعناية المشدّدة الآن، سنفعل ما بوسعنا لإيقاف النّزيف الدّمويّ إن شاء الله...

- هل يمكن أن تدلّني على إسم المستشفى من فضلك؟
- المستشفى الولائي بسيدي بلعباس...
- حسنا، سأكون هناك اللّيلة إن شاء الله.

أخذت الدّموع الصّامتة، المتحجّرة بجفوني، تتساقط كالأمطار الهادئة دون توقّف، إقتربت منّي أمّي بخطوات بائسة، فانعقد لساني لوعة، ولم أستطع التحدث بأي حرف...

إنتصب وجه أمّي وقابل وجهي، تنظر إليّ بنظرة تذيب الفؤاد، وتثير الشّجون، ثمّ أردفت تقول بصوت جزع:

- خيرا يا عبد الهادي... ما به أبوك؟

تسمّرت في مكاني، وبالكاد أشعر بركبتي ويدي المرتجفة، تعطّلت عناصر شفتي عن العمل، ولم تكفّ أمّي عن الصّراخ الحزين الّذي يزيدني حزنا على حزن:

- تحدّث بنيّ بالله عليك، ما به والدك؟

وضعت خطواتي الصّغيرة المتنملة، الأشبه بخطوات السّجين الّذي سينفّذ في حقّه حكم الإعدام، شاعرا بالخوف المميت يتسلّل عبر جسدي كما يتسلل السرطان المميت، ليساهم في تخدير أطرافي رويدا رويدا، وبعد وصولي لجسد أمي مسكت يدها، حاولت الحديث فخانتني كلماتي، أزحت بصري عن أمّي محدّقا لأصابع يدي المهتزة بتسارع مريب، وبعد أن غلبتني العبرات قلت:

- أمّي بالله عليك لا تصرخي، قدّر الله وما شاء فعل، تعرّض والدي لحادث مرور بولاية سيدي بلعباس وهو بالمستشفى الآن، سنفطر ونقطع تذكرة السّفر اللّيلة إن شاء الله...

توقّف الزّمن فجأة ودبّ الهدوء المخيف، تجمّدت ملامح أمّي ووقفت منتصبة كتمثال متجمد، ضمّت يدها إلى صدرها في فزع، اتّسعت حدقة عينها ولم تنبس ببنت شفة، لم يتمالك جهازها العصبيّ شدّة الصّدمة، ولم تتحمّل جوارحها هذا الهدوء المميت، فارتخى جسدها فجأة على جسدي، وارتمى بين أحضاني، وهوت بجسمها الهزيل على صدري، طوّقتها بزنديّ المرتجفين وصرخت جزعا:

- أمّي، أمّي...

وضعتها بهدوء على الأرض، لأتيح لنفسي فرصة أكبر في إمساكها، طوّقت جسدها بيديّ، وحملتها بكلّ ما أوتيت من قوّة، ثمّ توجّهت إلى غرفتها واضعا إيّاها في سريرها، تأمّلت جسدها لبضع ثوان، حاولت إيقاظها فلم تستجب، جلبت كأسا من الماء وألقيته على وجهها، فارتد بصرها وارتعش جسدها وتفتّحت عيناها الذآبلتان في فصل خريف صادم، فرحت ألامس شعرها بأصابع يدي لتنتحب بصوت عميق خارج من صميمها، نظرت إليّ نظرة أذابت فؤادي وقالت بصوت خافت ودمع العين يسبقها:

- هل سيكون بخير؟

اصطنعت بسمة على ملامحي المرهقة وخطوط تفاؤل على وجهي الذّابل، لامست خدّها ماسحا عبراتها المنسكبة ثمّ قلت:

- هو بالعناية المشدّدة أمّي... سيكون بخير إن شاء الله... ادعي له يا أمّي... ادعي له عساها ساعة استجابة.

لم تتكلم بشبه كلمة، وواصلت قنوات عيونها بذرف الدّموع المتحجّرة بأجفانها، دمع ساخن متساقط على خدّيها كالأمطار، مسحت دموعها بأصابع يدي ثمّ استأنفت:

- قدّر الله وما شاء فعل، ادعي له يا أمّي أن يردّه الله إلينا ردّا جميلا، وسيكون سالما معافى إن شاء الله.

بعينين غارقتين في الدّموع ومكحولتين بأشباح التّعاسة والحزن، لامست شعلات تنهيداتها سقف الغرفة رافعة يدها المرتجفة بصعوبة، ثمّ تحدثت بسمفونية حزينة تقطع الغصص نوتاتها:

- يا ربّ أنا عبدة من عبادك الضّعفاء، أرجوك باسمك الجليل أن ترحم ضعفي وتردّ لي زوجي عامر سالما معافى يا ربّ، يا الله أنت الّذي قلت للشّيء كن فكان، وأنت الّذي قلت ادعوني استجب لكم، فيا ربّ اجعلها ساعة استجابة، واستجب دعائي وتقبّل تضرّعي وتغمّدني برحمتك وشفقتك... آمين.

*****

كثيرا ما نرفع سمّاعة الهاتف على خبر صادم يهزّ كياننا، ويستلذّ الألم الموجود بأحشائنا، خبر أليم يحمل بين دفّتيه الكثير من معاني الفراق، موت صديق، قريب، أو حبيب في حادث مرور.

مآسي حوادث السّير لا تنقطع، والأرقام المفزعة في تزايد مستمرّ مخيف، كلام قد اعتدنا سماعه في القنوات الاخباريّة والصّحف بين الفينة والأخرى، حوادث مرور مروّعة تقدّم تذكرة مجّانية على طبق من موت، ضحايا تذهب أرواحهم بلمح البصر سدى، لأسباب متعدّدة أهمّها السّرعة الجنونية الّتي لا تعرف الرّحمة أبدا...

فلقد أصبحت هاته السّلعة رائجة بين الشّباب، يستخدمونها كوسيلة للتّرويح عن النّفس، لغاية إبراز قدراتهم المريضة الّتي تشعرهم بأنّهم خليفة لأحد أبطال السّباقات.

يلقون بأنفسهم إلى التّهلكة، ويجعلون من أرواحهم رهانا على فوزهم متحدّين بعضهم البعض على وسام السّرعة، دون التّفكير ولو لوهلة في أرواحهم الغالية الّتي ليست ملكا لهم لوحدهم وحسب...

لا يعلمون أبدا بأنّ الأرواح الّتي ستزهقها أيديهم بفعل تهوّرهم سيسألون عنها يوم الدّين: بأيّ ذنب أسرفت؟

فإن لم تكن حياتك تستحقّ بالنّسبة إليك، فلا تنس التّفكير في أهلك الّذين سيتجرّعون مرارة فقدك، ويتألّمون لفراقك...

فكّر في أمّك الّتي سيحترق قلبها حزنا وأسى عليك، فكّر في الأشخاص الّذين سيدعون عليك إن ساهمت في مقتل فلذّات كبدهم، في كلّ صلاة، فدعوة المظلوم مستجابة، تذكّر ربّك الّذي وهبك جسدا كاملا، وأنت لم تحافظ عليه بتهور غبي، جسدك أمانة والأمانة يسأل عنها صاحبها يوم الدّين...

لا تسرع، فالطّريق لا تعرف الشّفقة، ولا ترحم صغيرا أو كبيرا، والموت بدوره لا يطرق باب أحد قبل أن يأخذه، لا تسرع فنهاية السّرعة الموت!

أتفرّس غرف الاستعجالات وأنا تائه في غيابات الخوف الشّديد، وبعدما وجدت غرفة أبي الموجودة على يساري مسكت يد أمّي المتّكئة على كتفي الأيمن، طوّقت يدها اليسرى بأصابع يدي عسى أن أخرج عبر ذلك خوفي وارتعابي...

نسترقّ النّظر عبر النّوافذ الزّجاجية المحيطة بالغرفة، طبيب وممرّضان محيطان بجسد أبي، الطّبيب يضع جهاز الإنعاش القلبيّ على صدر أبي، ثم يجذبه كما تجذب الرّياح أعالي النّخيل، بينما الآخران يقفان أمام جهاز العرض يترقّبان خطوط الاهتزازات بصمت، استدرت يمينا لأرى ملامح أمّي المنقبضة الّتي تتحدّث بسكون عن الغصّة الّتي بقلبها، ضغطت على أصابع يدها واصطنعت بسمة خفيفة على شفتي ثمّ قلت:

- لا تقلقي يا أمّي... سينجو بإذن الله...

*****

صراخ وآهات، أوجاع وأسقام، دموع ودماء، كلّها كلمات تدور في دوّامة المستشفيات، مناظر تلهب الأنفس وتلفحها تعاسة وحزنا...

فحينما تراودنا أحيانا نفحات اكتئاب، يكفينا أن نذهب إليها، ونشاهد بأمّ أعيننا معاناة المرضى بين أركان غرفها، نشعر بذلك السّقيم الّذي أثقل المرض كاهله وأصاب الوهن أعضاءه، ونحسّ بذلك الجندي الّذي فقد أحد أطرافه دفاعا عن وطنه، وبذلك الرّجل الّذي يتجرّع مرارة فقد زوجته أثناء ولادتها...

نعمة عظيمة قد نتغافل عنها، وهي نعمة الصّحّة والعافية، ومتى ما أردنا استشعار قدر هاته النّعمة في حياتنا، يكفي أن نشعر بمن حولنا من المبتلين والمعاقين، وحاملي الأمراض المختلفة الّتي عمّرت بأجسادهم الضّعيفة، فهؤلاء جميعا لو أنّهم خيّروا بين أموال الدّنيا والصّحّة لاختاروا بلا شكّ نعمة الصّحّة، فما عسانا نقول سوى الحمد لله على هاته النّعمة...

توقّف الطّبيب عن تقديم الإنعاش القلبيّ لوهلة، مسح حبّات العرق الّتي تتصبّب على جبينه كقطرات المطر، وبعد بضع ثوان تناثرت نغمات جهاز العرض المخيفة في الأرجاء، الرّنة المرعبة الّتي يهابها الأطبّاء، ويسعد لسماعها ملك الموت الّذي يترقّب ضعف ضحيّته كثعبان خبيث، ضغط أحد الممرّضين على الجهاز ثمّ أعاد

الطّبيب تقديم الإنعاش، يعيد ويعيد ثمّ يحدّق للجهاز، حاولت أن أسترقّ النّظر قليلا فأتحت لنفسي فرصة للنّظر، أبصرت خطًا مستقيما على جهاز العرض، ممّا يعني توقّف القلب عن العمل، ارتعش قلبي فجأة فرحت أجري بخطوات أسرع من البرق إلى باب الغرفة، دققت الباب بطرقات شديدة لكن لم يفتح لي الباب، اقتربت منّي أمّي دون أن تصدر أي صوت، جلست على حافة الباب بعد أن غلبني ضعفي فجأة، وبعد هنيهة بدأ الباب بالانفتاح، نهضت من مكاني جزعا، تتزايد خفقات قلبي تسارعا مع كلّ ثانية ينفتح فيها الباب، خرج الطّبيب بملامح منقبضة تعبّر عن تعبه وإرهاقه، حدّق بي قليلا ثمّ أردف يقول:

- هل أنت من عائلته؟
- نعم، خيرا إن شاء الله!
- يؤسفني القول بأنّ أباك انتقل إلى رحمة الله تعالى، صبّركم الله وعظّم أجركم...

*****

- بنيّ أين شردت؟

وعلى حين بغتة، استطعت الخروج من عمق الذّاكرة الأليمة متجاوزا غيابات الماضي بعد أن لامست أمي دموعي المنسكبة ثمّ أردفت تقول:

- هل هي دموع الفرح بنيّ أم ماذا؟

أخفيت حزني من عبراتي، ثمّ سالت ابتسامة خفيفة لطيفة على شفتي وقلت:

- نعم يا حبيبتي، إنّها دموع فرح وما أجملها من دموع...

امقتع وجه أمّي فجأة وتقلّصت ملامحها ثمّ قالت والغصص تقطع صوتها:

- والآن ماذا يا بنيّ؟ ماذا عنّي؟

تفتّحت عيناي دهشة:

- كيف؟

أجفلت ثمّ حنت رأسها والدّمع السّاخن يتساقط بهدوء شديد وقالت متنهّدة:

- لقد قبلت في الوظيفة وستهاجر لبلاد الغربة قريبا، وأنا سأبقى لوحدي، لقد تركني أبوك العام الماضي وستتركني أنت كذلك، من سيرعاني في غيابك؟

شعرت بالشّفقة والحزن يتمازجان في صدري، كتمازج قطرات الأمطار برائحة التّراب، وضعت يدي على أجفانها المقرحة من البكاء وقلت:

- حبيبتي، هل تستطيع الورود العيش دون مطر؟
- لا يا بنيّ....
- إذا كذلك أنا، لا أستطيع العيش دون نور وجهك وصفاء قلبك وحنو حضنك...

اتّسعت عيناها ولم تحرك ساكنا، وكأنّها تقول بصوت غير مسموع:

- أكمل كلامك...

اقتربت من خدّها الرّطب المبلّل بالعبرات، وطبعت قبلة عليه ثمّ استطردت:

- لذلك ستهاجرين معي إن شاء الله، سنذهب سويّا...

*****

فتاة درست معي بالجامعة تدعى فاطمة، هي أوّل إنسانة تبادرت إلى ذهني، شاعرا بوجود أيد خفيّة تجتذبني إليها رغما عنّي...

فتاة ذات وجه حزين هادئ محجوب بنقاب من الاصفرار الشّفّاف، نحيلة الجسم، ذات صوت منخفض حلو، تقطعه التّنهّدات، فينسكب من بين شفتيها مثلما تتساقط قطرات النّدى على تيجان الزّهور بمرور تموّجات الهواء العابرة.

جمالها لم يكن منطبقا على معايير الجمال الخارجية، بقدر ما كان مندسّا في هالة الطّهر بقلبها، ولم يكن مكحولا بعينها بقدر النّور المنبثّ من صميم بؤبئها، ولم يكن متسايلا من بسمة شفتها بقدر السّرور والفرح الّذي يتقاطر من صدرها، جمالها أشبه بشعلة بيضاء متّقدة سابحة بين السّماء والأرض كنجمة متوهجة تائهة في طرق الليل الحالك...

أكثر بنات الصّفّ خجلا، حياء، واحتشاما، مشيتها معتدلة ذات حركات بطيئة متوازنة أشبه بمقاطع الألحان الأصفهانيّة، ذات لباس محتشم يتحدّث بالسّكينة عن عفّتها، وقارها وتربيتها.

إنّ أكثر شيء مثير للاهتمام في الفتاة، حياؤها وخجلها، فإن فقدت الفتاة ماء وجهها، فهنا قد أصبحت مخلوق ظلّ غير مكتمل، فاقدة أهمّ عنصر يميّز المرأة عن الرّجل، فحينما قال الله تعالى:"فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا"

فهنا قد وضع الله تعالى دلائل واضحة على طبيعة الفتاة المسلمة، الملتزمة الّتي تؤدّي وظيفتها على أكمل وجه، وتقدّم رسالتها على أرفع صورة من العفّة، الحياء والنقاء...

فالهاء ضمير متّصل يعود على سيّدنا موسى عليه السّلام الّذي سقى لابنتي شعيب عليه السّلام فلم يكن من والدهما سوى أنّه كلّف إحدى ابنتيه، بالذّهاب لموسى لتكريمه على فعله النّبيل، ولم يرسل

الأب الفتاة إلّا وهو واثق منها لأبعد حدّ، وشاعر بقيمة أخلاقها وعفّتها.

أما كلمة (إحداهما) فهذا دليل حتميّ على أنّ هوية الفتاة في القصّة غير مهمّة، ومعرفة اسمها لا يسمن ولا يغني من جوع، فالفتاة مكلّفة هنا بمهمّة خاصّة، وجب عليها إتمامها على أتمّ وجه، وأن تكون عند حسن ظنّ أبيها بها، فلم يذكر الله لا جمالها ولا شكلها، ولا تعاملها أو خضوعها بالقول، ولم يذكر حتّى اسمها، بل وصف مشيتها المعتدلة الّتي تجسّد صورة فنّية رائعة عن المرأة المسلمة التي تنطبع على خصالها علامات الوقار، الحياء، والخجل فقوله تعالى (تمشي على استحياء) يدلّ على مشيتها المتّزنة فلا هي بطيئة ولا سريعة...

لم أترك الأيّام تتوالى عليّ مسرعة، فخطوت خطوتي الأولى نحو أمّي، وقمت بمفاتحتها في الموضوع، بخصوص ارتباطي، مقترحا عليها فاطمة، فأبدت تشجيعا لي على المضي قدما ونبّهتني بأن لا أفقد الأمل إن تمّ رفضي، فأغلب الفتيات لا يرضين بالابتعاد كثيرا عن والديهنّ، خصوصا إن وجدت الإقامة خارج الوطن، جرعة أملي كبيرة، وجب عليّ التّفاؤل وانتظار الزّمن ماذا يخبّئ لي...

*****

ها أنا أجد منزل فاطمة، بعد رحلة بحث متواصلة دامت لأكثر من ثلاثة أيّام، واستعملت في ذلك عدّة وسائل للبحث بائت

جميعها بالفشل، إلّا زميلا يدعى أحمد، كان يدرس معي في نفس الصّفّ وهو يعرف عنوان منزل فاطمة، منزلها يبعد عن منزلنا بحوالي المئة كيلومتر في الضّفّة الأخرى من الجزائر العاصمة، تعرّفت على أبيها الأستاذ صالح الّذي يدرّس في ثانوية العقيد لطفي الموجودة بنفس شارع منزله، بعد أن تعرّفت على مواصفات شكله اتّجهت للمؤسّسة يوم الأحد وانتظرت ملاقاته بفارغ الصّبر...

- السّلام عليكم عمّي صالح، كيف حالك؟
- وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته، بخير الحمد لله...

غمائم الصمت تغشّت شفتي، فتبعثرت كلماتي، شاعرا بهواجس مقلقة تعبث بأحاسيسي، فلم يكن من العمّ صالح سوى أن كسر صمتي قائلا:

- ما بك بنيّ؟ خيرا إن شاء الله هل تريد منّي شيئا ما؟

استطعت بمجهود أن أفتح شفتي فقلت بصوت يقطعه الخجل:

- عمّي صالح، أريد أن أسألك سؤالا من فضلك، وسامحني على تطفّلي...

حدّق بي قليلا، وضع يده اليمنى على لحيته المتقاطرة من على شفتيه ثمّ قال:

- بالطّبع، تفضّل بنيّ...

- هل ابنتك فاطمة مرتبطة؟

تسايلت من شفتيه ابتسامة خفيفة داعبت لحيته في تناغم جميل ولم يقل شيئا، تبعثرت كلماتي بغتة فحاولت جمعها مبتلعا ارتباكي ثمّ أكملت كلامي:

- لا تفهمني غلط يا عمّي، أريدها على سنّة الله ورسوله إن لم تكن مرتبطة طبعا.....

اتّسع فكّاه، وضحك ملء شدقيه، ثمّ وجّه بصره إليّ واضعا كفّ يده الأيمن على كتفي الأيسر ثمّ قال:

- ليست مرتبطة، بما أنّك تريدها فلتأت البيوت من أبوابها، ولن أصدّك على نيّتك الحسنة، لكنّني لن أعطيك القرار النّهائي فالحسم بيد ابنتي، اعزم وتوكّل على الله، ومن يتوكّل على الله فهو حسبه....
- هل بامكاني المجيء الأسبوع المقبل؟
- في أيّ وقت أنت مرحّب بك بنيّ، بالمناسبة ماذا تفعل في حياتك؟
- درست مع فاطمة في نفس الجامعة، جامعة الجزائر وكنت أنا بتخصّص الكيمياء، أنا واصلت إكمال الدّكتوراه وسجّلت بمنحة تدريس في جامعة باريس، وتمّ قبولي هنالك وسأبدأ عملي مع مطلع السّنة الجديدة إن شاء الله...

- ما شاء الله بنيّ، لكن موضوع الهجرة... يعني لا أعرف صراحة هل ستقبل ابنتي أو لا، على العموم أنت شرّفنا وسنرى إن شاء الله... مع من ستأتي؟
- مع أمّي...
- ووالدك ألن يأتي؟
- والدي توفّي العام الماضي إثر حادث مرور.....
- أنا متأسّف بنيّ على تطفّلي، رحمه الله وأدخله فسيح جنّاته...
- آمين... آمين يا رب، إذا الأسبوع المقبل بإذن الله، يوم السّبت أو الأحد...
- إن شاء الله، إن شاء الله.....

*****

حان موعد ذهابي لمنزل العمّ صالح، في صبيحة هذا اليوم، لم تكفّ أحشائي عن التّقطّع والتّلوّي، ولم يكفّ خوفي عن مراودة جهازي العصبيّ، ولم تكفّ نبضات قلبي عن الخفقان المتسارع، لم يتبقّ لي سوى بضع خطوات عن باب المنزل، مسكت يد أمّي بحرارة لأخفي عبر كفّها خوفي الّذي جمّد ركبتيّ، ورحت أضع خطواتي مقتربا من باب المنزل، وبعد وصولي للباب، طرقت عليه بضع طرقات خفيفة، لم تلبث بضع ثوان حتّى انفتح الباب على وجه

العمّ صالح البشوش الّذي تنسكب من عينيه أشعّة سحريّة، ترسل نورها لشغاف القلب، وبابتسامة خفيفة لطيفة قال:

- مرحبا بكم، طبتم وطاب ممشاكم، تفضّلوا، تفضلوا، فالدّار داركم، ونحن ضيوفها.

دخلنا غرفة استقبال الضّيوف، أين استقبلتنا خالتي مليكة بنسماتها اللّطيفة وعفويّتها وخفّة ظلّها الّتي تكسبها مكانة جميلة في القلب بسرعة، تبادلنا أطراف الحديث في الغرفة عن غلاء الأسعار وظروف عملي في فرنسا، وعن الحرّ وتغيّر المناخ، ومواضيع كثيرة اكتسبت طابع العفويّة والمزاح في بضع الأحيان، وبينما نحن كذلك حتّى شعرت بتسارع واضح في دقّات قلبي، بعد أن تململ في مسامعي صوت خافت بنغمات خجولة:

- السّلام عليكم...

كسرت هواجسي معيدا الصّوت على ذاكرتي، حاولت التّفكّر والتّأمّل، فعصتني نفسي لأنّ النّفس كالزّهرة تضمّ أوراقها أمام الظّلمة ولا تعطي نفسها لأخيلة اللّيل، دسست أناملي في جوف يدي من شدّة الارتباك، شاعرا بحرارة الدّم الّذي يغلي بعروقي، سادت نغمات الصّمت على الأرجاء لوهلة، فاقتحمها العمّ صالح قائلا:

- شرّفي يا طفلتي فاطمة، تعالي واجلسي هنا بجانبي.

وما إن لفظ اسم فاطمة، حتّى تضعضع دماغي وتلهّبت أنفسي، وملأ الخجل أهواء عواطفي، لدرجة أنّني لم أستطع حتّى رفع رأسي من شدّة الخجل، فرحت أدسّ خجلي بين أصابع يدي المرتجفة وأحدّق إليها في صمت، كما تحدّق الشّمس لسفوح الجبال.

وبعد هنيهة قال العمّ صالح:

- فاطمة هذا هو الرّجل الّذي حدّثتك عنه، بإمكانكما رؤية بعضكما الآن.

رأسي يرتفع رويدا رويدا، كما ترتفع النّحلة عن الزهرة بعد امتصاص الرحيق، وخفقات قلبي تتناثر كما تناثر قطرات النّدى على أوراق الشّجر، وبعد أن لمحتها شعرت بصاعقة خفيفة هزّت جهازي العصبيّ لغاية بطني، فغضضت بصري مباشرة لأصابع يدي الموجودة على ركبتيّ المرتعشتين.

ثمّ استعاد المجلس نقاشاته، وأحاديثه، في حين أنّني لم أنبس ببنت شفة، واكتفيت بالصّمت الّذي يتكلّم بالسّكينة، عن الخجل المسيطر على كلّ عضو بجسدي، وبعد حوالي نصف ساعة اعتذرت فاطمة وخرجت كأنّها لم تكن، دون أن أسمع لخطواتها أي صدى، ثمّ تبعها العمّ صالح والخالة مليكة، تاركين تلك الهواجس متمايلة حول قلبي، أعصابي منفلتة... أحشاء صدري منقبضة... أحاسيس مقلقة... أنتظر ردّهما على أحرّ من الجمر، دسست أناملي أسفل كتفي ثمّ همست:

- فيها خير إن شاء الله...

مسكت أمّي بيدي ثمّ قالت بصوت خافت:

- الخيرة فيما اختاره الله بنيّ، حافظ على هدوئك ولا ترتبك فالأمر ليس بهاته الصّعوبة، كلّ شيء بقدر بنيّ...
- نعم معك حقّ، لكن ...؟

وعلى حين بغتة، اقتحمت خالتي مليكة وعمّي صالح الغرفة، وجّهت بصري إليهما بعد أن ضغطت على ركبتي من شدّة الارتباك، وبصوت تتموّج في مقاطعه معاني الفرح والسّرور اقترب منّي العمّ صالح ثمّ قال:

- لقد قبلت فاطمة، مبارك علينا وعليكم...

وأخيرا شعرت بالارتياح قد دبّ بجسدي، وملأ السّرور أهواء عواطفي، وكنت كذاك الجنديّ الّذي اتّجه للحرب دون معرفة هل سيعود سالما أم لا، فتأوّهت وقلت في سرّي:

- الحمد لله ...إن شاء الله يتمم ما تبقّى...

*****

وبعد أن مرّ شهر على زواجنا الّذي كان بسيطا وغير مهدر للأموال، حينما تقلّ الأموال المصروفة على الزّفاف تزيد بركة الله تعالى ويطول الأمد، معادلة بسيطة عكسية ذات متغيّرين، الأموال

والبركة، توازيها معادلة أخرى بمتغيّرين الفجور ورضا الله تعالى فكلّما ابتعدت أجواء الأعراس عن الفجور، اقتربت من محيط رضا الله تعالى، والعكس صحيح...

فالله تعالى لا يرضى من عبده أن يتمّ نصف دينه بملابس التّبذير والفجور، فمن يتزوّج تطبيقا لسنّة الله ورسوله، ويكسر قواعد رضا الله، لا يختلف عن الّذي يسرق وينهب من أموال غيره للذّهاب إلى بيت الله الحرام، كلاهما وجهان لعملة واحدة تدعى غضب الله.

لم يتبقّ سوى بضعة أيّام على موعد ذهابنا لبلاد الغربة، بلاد لم تطأها أقدامنا من قبل، بلاد بعيدة يفرّقها البحر الأبيض المتوسّط عن بلاد الجزائر، بلاد برج إيفل ومتحف اللّوفر، جبال الألب والشّارع اللاّتيني، أتى اليوم الموعود، يوم الهجرة لفرنسا...

ترى كيف ستكون هنالك المعيشة؟ هل ستكون سهلة أم صعبة؟ هل سنتأقلم هنالك في بلد أوربيّ يختلف كثيرا عن الجزائر؟ هل ستستطيع فاطمة العيش بعيدا عن أهلها لمدّة طويلة؟ ألن يملأ الشّوق أهواء عواطفها؟ هنا بالجزائر كنّا قد اتّفقنا على بقائها طيلة الشّهرين في منزل والدها وأُقوم أنا بزيارتها بين الفينة والأخرى، أو تقوم هي ووالداها بزيارتنا مرّات أخرى، على كلّ مهما كان حجم الشّوق سيتلاشى بوجود والديها بقربها، لكن هنالك بفرنسا المكالمات أو الرّسائل لن تكفي لإرضاء شوقها وحنينها، ولن تستطيع مضاهاة قيمة حضن مشتاق ومشتاق إليه، كلّها هواجس وأسئلة

متناثرة، لا أحد يعلم إجابتها غير الله تعالى... ولا أحد يعلم ماذا يخبّئ له الزّمن في هاته البلاد، ولا أحد يعلم هل ستكون هاته البلاد فأل خير عليه أو فأل شرّ، إذا لابدّ من الانتظار عسى أن يحدث الله بعد ذلك أمرا... !

الفصل الثّانيّ

قد وضع الحمام الزّاجل برسالة على صندوق باب المنزل، رسالة في جوفها نسمات معلنة باقتراب ضيف كريم على صدورنا وأنفسنا، ضيف تداعب نسماته أرواحنا كلّ سنة لمدّة ثلاثين يوما، جالبة معها نفحات من البهجة والسّرور على قلوبنا، فإن نحن أحسنّا استقبال هذا الضّيف الكريم بوضع الصّبر والقوّة على كلتا الكفّتين لكي

يتعادل ميزان طاقة جسدنا له، أنعم علينا بالخير، البركة، الرّحمة والمغفرة من الله عز وجل، وإن نحن لم نهتمّ لحضوره وكأنّه لم يكن، انسلخ عنّا عائدا من حيث أتى دون ترك أيّ وقعة جميلة على أنفسنا، يذهب كريح عاتية اخترقت نوافذ المنازل طامحة في أخذ ما تجده في طريقها، إن هي وجدت ما تأخذ أخذت، وإن لم تجد هبّت مسرعة من حيث أتت...

الزّمن يمرّ بلمح البصر، الشّهر كاليوم، واليوم كالدّقيقة، والدّقيقة كالثّانية، فبعد أن صمت رمضان السّنة الماضية في بلدي الجزائر بين أحضان والديّ، ها أنا مقبلة على استقبال رمضان في بلاد جديدة، وإقامة جديدة، وبين أحضان عائلة جديدة، متكوّنة من شخصين عبد الهادي وأمّي خديجة.

الأمر لم يكن سهلا مطلقا فالغربة ليست الجنّة، والهجرة ليست الرّاحة والرّخاء، وفرنسا ليست مزهرة كثيرا على ما يبدو، ولم أضع في حسباني يوما بأنّ المسافة البعيدة الّتي سأرسمها بعيدا عن والديّ، ستقوم بإيذائي بين الفينة والأخرى، وتلفح قلبي، وتترك ندوب شوق وحنين...

فالمثل العربي (البعيد عن العين بعيد عن القلب) لا أساس له من الصّحّة، فليس كلّ قريب عن العين، قريب من القلب، وليس كلّ بعيد عن العين بعيد عن القلب، فالمثل الإنجليزيّ الّذي يقول (البعد يزيد القلب ولعا وحبّا) هو الأكثر صحّة...

فالمحبّة لم تفتح أبوابها يوما بمفاتيح بعد أو قرب، فكم من شخص أحببناه وسكن وجداننا، منيرا عتمتنا ومداعبا أرواحنا سعادة وهو بعيد عن منظرنا، وكم من قريب عاش في كلّ لحظة بحياتنا، ووضع بصمته في كلّ حدث بها، لكن لم يكن لوجوده أي وقعة على نفوسنا، ولم تلامس أرواحه أرواحنا...

فقد تضطرّنا الحياة أحيانا لمفارقة أحبابنا والابتعاد عنهم جسدا، لكنّ أرواحنا لا ترضى مفارقتهم، ولا تهوى الرّحيل عنهم، يكتب لنا القدر الابتعاد، ونشعر بأنّنا تعوّدنا على فراقهم، لكن قلوبنا لا ترضى الاستسلام بسهولة، ولا ترضخ لابتعادنا عنهم، وتتضخّم شرايين الشّوق والحنين لأجلهم، اليوم تلو الآخر...

لكن لا بدّ من التّأقلم مع ظروف العيش الجديدة، ومحاولة الانسجام مع الأجواء المختلفة هنا بفرنسا، ولا بدّ من نسج خيوط المحبّة بين عائلتي المصغّرة الجديدة.

تذكّرني أمّي خديجة، بأمّي التي لم أنعم بريحان حضنها منذ شهر، هي لم تبخل على روحي المنقبضة بتفتّحات أزهارها، وبرحيقها الّذي يسيل حنانا وحبّا مذيبا الفؤاد...

لم أبصر منها سوى كلّ معاملة تتموّج في معانيها، معاني الرّقة والحنو والرّأفة، ولم يخالجني بوجودها ذلك الشّعور الأليم الّذي قد يراود أي فتاة متزوّجة حديثا... شعور لا تحسّه سوى الفتاة المشتراة بعرض من الدّنيا قليل...

فما أتعس الفتاة الّتي تضطرّ للتّخلّي عن نسمات العزّ والدّلال الّتي قد تنعّمت به في منزل والدها، تضع كفّة والدها في جهة وكفّة زوجها المستقبليّ في الجهة الأخرى، وإن كانت هاته هي سنّة الحياة، تنسلخ من حضن والديها، مرتمية بين أحضان أشباح الكآبة والحزن، عند رجل لا يرى منها سوى امرأة تخدمه وتخدم والديه، امرأة تطبخ ،تغسل، تنظّف، تقوم بأشغال البيت وتقوم بإسعاده والتّرويح عنه دائما، امرأة تنجب ذرّية وتربّي، ولا تحصل على الفرصة حتّى في الرّاحة بعيدا عن أجواء المنزل، هذا إن لم تتلقّ في بيت زوجها معاملة الإهانة والذّلّ من طرفه، لتصبح امرأة قدرها لا يتجاوز قدر تلك الّتي كانت قديما تشترى في الأسواق، وتعرض مزادا على الزّبائن، والأدهى والأمرّ، حينما يختلط الحابل بالنّابل، ويشكّل الزّوج ووالداه حزبا ضدّ الزّوجة المسكينة، وكأنّ الله تعالى سخّر للرّجل زواجه سبيلا في تعذيب بنات النّاس بوسائل سيطرة وذلّ وإهانة ... !

عقل قاعدته تفكير، قلب أساسه شعور، هدوء يسوده حرب أهليّة متمازجة بين طفولة وجدّية، متديّن دون تشدّد، رجل تذوب في وصفه أسمى الصّفات والمعاني، رجل يدعى عبد الهادي....

إنّ أكثر ما أثار إعجابي فيه هو تمسّكه بدينه ومدى تفقّهه في أحكامه، فالله تعالى حينما يحبّ عبده يبعث في روحه حبّ تعلّم أحكام الدّين والتّفقّه فيها، فغربتنا لم تكن سببا في عزوفه عن تعاليم ربّه ولا وسيلة في انحرافه عن الطّريق المستقيم، على

العكس الغربة هي أكثر من شكّل له غشاء في صميم قلبه لحبّ الدّين والتّمسّك بربّه أكثر.

لطالما تمنّيت الزّواج برجل مثله، إنسان خلوق، متديّن، وغيور على دينه، شرفه وعرضه، رجل طيّب، ذو أوردة تضخّ حنانا ورحمة، لكنّني وضعت حدّا لكلّ أحلامي وأوهامي وتخيّلاتي اللاّمتناهيّة في دوّامة صبر، وفوّضت أمري إلى الله، راسمة بذلك منهجا لحياتي بخطّين متوازيين، أوّلهما الصّبر وثانيهما القناعة...

أثناء دراستي بالجامعة، كنت من بين قلّة الفتيات غير المرتبطات، سواء بخاتم يد أو بعلاقة عابرة، وكنت أبحر بسفينتي ضدّ الزّمن، معتمدة على شراع صبري، وثقتي بالله تعالى، استعففت لله تعالى وتأمّلت بفارغ الصّبر في أن يدقّ باب منزلي الرّجل الّذي كتب لي، ولم أفكّر يوما في أن أدقّ باب علاقات في غير إطار رضا الله تعالى، شددت من أزري ورفعت جرعة قناعتي مؤمنة بأنّه من ترك شيئا لله تعالى عوّضه الله خيرا منه...

لم تغويني يوما علاقات الحبّ العابرة الحائمة في محيط سخط الله، علاقات تافهة رخيصة ذات وسائل أرخص متمثّلة في أرقام هواتف أو رسائل أو غيرها، لغاية واضحة وضوح الشّمس، متمثّلة في إشباع شهوات حيوانيّة، مكبوتة، تنفيذا لرغبات كلاب مسعورة تحاول استغلال أسنح الفرص، لاصطياد فرائس سهلة المنال، لتنهش لحمها وعظامها وتلقي بما تبقّى منها بالطّرقات بين أركان العار والفضيحة يوم لا ينفع النّدم...

هذا إن لم تتجاوز الفضيحة عقابا من الله تعالى، متمثّلا في روح بريئة، تقتحم نور الحياة بنظرات موجعة يصاحبها العار مستقبلا، وتتوه في غيابات المستقبل المجهول فتئنّ الرّوح وتتوجّع في ظلّ انعدام هويّة أو نسب، فبأيّ ذنب أتت هاته الرّوح لظلمات الحياة؟

أكبر كذبة قد تتضخّم صورتها في قلب الإنسان وعقله، صورة قذرة مقنّعة بقناع الزّواج، صورة قد رسمها الشّيطان والنّفس الأمّارة بالسّوء معا، افعل معها ما تريد ففي نهاية المطاف هي زوجتك، ألا تذكر ...؟

نظرة، فابتسامة، فسلام، فكلام، فموعد، فلقاء ... فعل ما وراء فعل، فالبحر بطبيعة الحال يشتهي الزّيادة ولا يكتفي بالقليل أبدا، في رمشة عين فقط حتّى يجد الرّجل نفسه قد وضع في أكبر الكبائر دون شعور....

لم يلامس تخيّلاتي يوما، بأنّ الله سيجازي إعراضي عن مثل هاته العلاقات، ويوفي صبري بزوج طالما تمنّيت مثله، ويثيب استعفافي برجل أغنى من كنوز الدّنيا وما فيها... لكن ألم يقل الله تعالى: الطّيبون للطّيبات...؟ إذا هاته معادلة بسيطة لأيّ فتاة تتمنّى رجلا طيّبا، يكفي أن تكون الفتاة طيّبة لتكسب رجلا مثلها أو أفضل ...

*****

أتذكّر يوم أن دقّ عبد الهادي باب منزلي، وشعرت بأنّه دقّ باب عقلي وقلبي معا، السّاعة تشير للخامسة زوالا، وبينما أنا منشغلة بالتّسبيح بعد صلاتي للعصر، دقّت أمّي باب غرفتي بصوت خافت يدعوني للفتح، فلم يكن منّي إلّا وأن نهضت وفتحت لها الباب، دخلت أمّي بنظرات مريبة، ومشية مرتبكة وقالت بصوت قلق:

- هيا يا ابنتي، لقد شرّفنا ضيوف... جهّزي نفسك بسرعة.
- ضيوف؟ ومن الضّيوف يا أمي؟
- لقد شرّفنا عبد الهادي وأمّه، الشّاب الّذي أخبرنا عنه والدك الأسبوع الماضي...

أمسكت أمّي يدي ودسّت بأناملي جوف كفّها ثمّ أردفت تقول:

- لكن لن أوصيك يا بنيّتي بضرورة التّمهّل، ولا تخجلي من أبيك... لو شعرت بأنّه رجل غير مناسب يكفي منك أن ترفضيه، ارفضيه وحسب ففتاة مثلك لا تستحقّ الزّواج بشبه رجل...

قاطعتها في تطلّع قائلة:

- وما هي مواصفاته يا أمّي؟

ضحكت أمي ملء شدقيها، وتناثرت قطرات الدّموع من على أجفانها وبصوت مرح قالت:

- ألم تخبريني بأنّ جمال الرّجل آخر همّك؟

عقدت شفتيّ وحاجبيّ في عبوس ثمّ قلت:

- ومن قال لك بأنّني أسأل عن مواصفاته الشّكلية يا أمّي؟

حدّقت أمّي بي قليلا ثمّ رسمت وجها بشوشا على ملامحها الجميلة ثمّ قالت:

- لعوب أنت، لعوب مثل أمّك... يعني الرّجل ما شاء الله، كما أخبرنا أبوك، هو دكتور جامعي بجامعة باريس لكنّه لم يبدأ العمل بعد، سيتكفّل بالزّفاف هنا بالجزائر قبل سفره، عيونه جميلة تتقاطر من صميمها قطرات العسل المصفّى، وذو لحية خفيفة مهذّبة متناثرة من أسفل شفته وفكّيه، يبدو مؤدّبا وحسن الخلق، فقد غضّ بصره عنّي بمجرّد أن اقتحمت غرفة استقبال الضّيوف وشعرت بحيائه وخجله...

قاطعت أمّي قائلة:

- حسنا... حسنا يا أمّي، سأستخير الله فيه بعد رؤيته عسى أن يحدث الله بعد ذلك أمرا...

*****

ارتفعت جرعة تفاؤلي طامحة في لقائه، خصوصا بعد ذكر أمّي لخلقه وأدبه، لكن هذا أيضا لم يمنع رياح التّشاؤم من الهبوب على

شغاف قلبي وطرد ذلك التّفاؤل الضّئيل عنه، رياح عاتية حفّزت شعوري الباطني المندسّ بين أحشائي، بأنّ الرّجل سيكون كغيره من الرّجال، جثث ضخام وعقول عصافير، لا يبصرون في الفتاة سوى شكلها الخارجيّ وحسنها، ويدقّون بابها لجمالها وحسب.

إنّ المرأة الّتي يمنحها الله جمال النّفس مشفوعا بجمال الجسد، هي حقيقة غامضة نفهمها بالمحبّة، ونلمسها بالطّهر، ونشعر بها بالطّيبة، وحينما نحاول وصفها بالكلمات تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والصمت...

وضعت القليل من الزّينة فالجمال جمال أرواح لا أجساد، وحينما تكمن نسماته شغاف القلب يتناثر ظاهرا بملامح الوجه، مكسبا إيّاه نورا وجمالا خارجيّا....

فمن أتاني طالبا جمالي وشكلي الخارجيّ فمجرّد تجاعيد خفيفة تلامسني، ستكون السّكّين الّذي سيقطع حبل وصاله الرّقيق، وتكون الفاصل بين حبّه لي وإعراضه عنّي، أمّا من طلب أخلاقي، طيبتي، أدبي، حيائي، وصفاتي الدّاخلية، فإنّه سيبصر بي حتما العالم الأكبر المنطوي في عقلي، وسيرضى بي وبجمالي، ولو كنت أقبح فتاة على وجه الأرض...

*****

أنهيت تجهيز نفسي، تنفّست ببطء طاردة ذلك الهواء المندسّ برئتي، وذرّات القلق والارتباك تلك، شاعرة بتثاقل قدمي على

الأرض، لابّد من المضي قدما، وضعت خطواتي الأولى بعد أن توكّلت على الله، ورحت أنزل الدّرج درجا درجا بكامل الهدوء، وبعد أن وصلت لرواق غرفة الاستقبال، سمّيت الله ثمّ دخلت الغرفة وألقيت التّحية بصوت خافت يتكلمّ بالصّمت عن خجلي وحيائي الشّديدين...

دعاني أبي للجلوس بجانبه فلبّيت دعوته وجلست باحتشام شديد، وطأطأت رأسي محدّقة لأصابع قدمي المتيبّسة، وبعد بضع دقائق من الأحاديث طلب أبي منّي رؤية عبد الهادي، فلم يكن منّي سوى أن شددت على ركبتي بأصابع يدي ثمّ رحت أحرّك رأسي صعودا بتثاقل، وعلى بغتة تمكّنت عيوني من ملاقاة عيون عبد الهادي، فشعرت بحرب عالمية ثالثة قد أعلنت اشتعال فتيلها، شعور غريب داخليّ راودني فجأة، ارتحت له دون أن أتحدّث معه حتّى، إحساس مثير يصرخ بباطني: هذا هو، هذا هو...!

وبعد بضع ثوان خرجت من شرودي وأزحت نظري عنه خجلا، فاستعاد المجلس أحاديثه لكنّني لم أهتمّ كثيرا لما قيل، غير ما شعرت به أنا ورأيته، فكلّ ما أثار إعجابي هو حياؤه،خجله وتمسّكه بدينه، فقد أخبر أبي بأنّه يحفظ من الأحاديث وكتاب الله ما تيسّر منه، فأنا أحترم كثيرا الرّجل المتمسّك بدينه وصلاته، وأثق به تمام الثّقة المطلقة، فحتما إن صان الرّجل صلاته ودينه، فسيصونني ويوفي حقوقي كاملة كما أمره الله بها، وإن ضيّع الرّجل صلاته المفروضة الّتي هي كنزه الدّنيويّ الّذي سيأخذه معه كمفتاح يدخل

عبره الجنّة من أبوابها الواسعة، فكيف سيتمسّك بي ولا يضيّعني... ؟

وبعد أن تركت القاعة، صعدت لغرفتي وصلّيت ركعتي استخارة، شعرت براحة كبيرة غمرت قفصي الصّدري، فصدّقت ذلك الشّعور، وبينما أنا جالسة بمكاني حتّى دخلت أمّي الغرفة بملامح الارتباك ثمّ قالت:

- هل صلّيت صلاة استخارة بنيّتي؟
- نعم يا أمّي، لقد فعلت.
- رائع، وماذا شعرت؟
- شعرت بالطّمأنينة للرّجل، وأعتقد أنّني سأقبل به...
- هل أنت متأكّدة؟ لكن لماذا؟
- نعم يا أمّي، أنا متأكّدة... أشعر بالرّاحة التّامة، وإحساس الأمان والسّكينة اتّجاهه... أخبري أبي بأنّني قبلت به.

*****

بعد مرور شهر رمضان، قدم عيد الفطر المبارك بنفحات من السّرور والبهجة على صدور المسلمين خرج عبد الهادي مبكّرا متوجّها للمسجد، بينما نزلت للمطبخ لتحضير فطور الصّباح، وبعد هنيهة قدمت أمّي خديجة للمطبخ ثمّ دنت منّي وقبّلتني قائلة:

- صباح الخير ابنتي. عيدك مبارك وكلّ عام وأنت بخير.

- صباح النّور أمّي خديجة، وعيدك مبارك، تقبل الله منّا ومنكم صالح الأعمال.
- هل خرج عبد الهادي؟
- نعم خرج منذ حوالي عشر دقائق.
- رائع، سأغسل وجهي وأعود لمساعدتك.

كنت مع أمّي خديجة على طاولة فطور الصّباح ننتظر قدوم عبد الهادي، وبعد حوالي ربع ساعة حتّى دخل من الباب بعباءته ناصعة البياض الّتي تكسبه نضارة لا مثيل لها، دخل إلى المطبخ ثمّ قال في صوت مرح:

- أهلا... أهلا، هل كنتما تنويان الأكل بدوني؟
- لا يا مزعج، كنّا ننتظرك، عيدك مبارك حبيبي.
- عيدك مبارك حبيبتي وكلّ عام وأنتم بخير، تقبّل الله منّا ومنكم صالح الأعمال....
- أمي أعطني خدّك الجميل. عيدك مبارك يا أحلى أمّ في الدّنيا.
- وعيدك مبارك بنيّ، كيف هي الأجواء في مسجد باريس الكبير؟
- رائعة يا أمّي، أحسست بأنّني بين أحضان إخواني المسلمين، ولم أشعر بالفرق كثيرا عن الجزائر، امتلأ المسجد عن آخره واكتظّ بالمسلمين من شتّى البلدان المسلمة، تشعرك كيف

أنّ الإسلام يقرّب الدّول بين بعضها البعض، رغم أنّ الأجواء لا تضاهي أجواء بلدنا الجزائر،إلاّ أنّها جميلة نوعا ما ..

- عزيزي، هيّا غيّر ثيابك وتعال لنفطر سويّا.....

الفصل الثّالث

البعض نحبّهم لأنّ مثلهم لا يستحقّ سوى الحبّ، ولا نملك شيئا لفعله أمامهم سوى أن نحبّهم بكلّ جوارحنا، ونعيش معهم لحظات كثيرة جميلة لم نعشها من قبل، ونرمّم ما كان ناقصا فينا بهم،

ونسعى جاهدين بأن نشعرهم بالسّعادة كعربون شكر لما غيّره حبّنا لهم فينا.

وأنا بشرفة المنزل أغوص في أعماق كتاب كيمياء الصّلاة، للكاتب أحمد العمري إذا بأذان صلاة العشاء يخترق مسامعي بكلمات: حيّ على الصّلاة. حيّ على الفلاح، اللّذان يعنيان المسارعة للإقبال على الصّلاة طلبا للفوز بجنّة الخلد...

قرأت دعاء ما بعد الأذان ثمّ توجّهت لغرفتي، وضعت القليل من العطر ثمّ نبّهت فاطمة وأمّي الموجودة بغرفة المكتبة بذهابي للمسجد، اتّجهت لأقرب مسجد لمنزلي، المسجد الكبير لباريس الّذي يعتبر من أكبر مساجد فرنسا، حيث أنّه شيّد من قبل مهاجري شمال إفريقيا الأوائل لفرنسا الّذين كان أغلبهم مغاربة وجزائريون.

بني المسجد بتمويل فرنسيّ تكريما للجنود المسلمين الّذين دافعوا عن فرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى ليدشّن سنة 1926 من طرف الرّئيس الفرنسي دومازغ والسّلطان المغربي مولاي يوسف.

اقتحمت فناء الجامع المتزيّن بألوان حديقة خلاّبة خضراء، تتوسّطها نافورة مياه جميلة، وتلك الزّخارف الرّائعة الّتي زيّنت جدران الجامع، وتبعث في النّفس شعورا بالسّكينة والطّمأنينة، نزلت الدّرج اللّولبي الّذي يقود إلى قاعة الوضوء في المستوى تحت الأرضيّ.

نزعت حذائي، ثمّ كشفت عن ذراعي، ورحت أتوضّأ للقاء ربّي، للمرّة الخامسة في اليوم، شارعا في تطبيق شرط من شروط قبول الصّلاة الّذي قال عنه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم:

(إذَا تَوضَّأَ الْعبْدُ الْمُسْلِم، أَو الْمُؤْمِنُ فغَسلَ وجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خطِيئةٍ نظر إِلَيْهَا بعينهِ مَعَ الْماءِ، أوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْماءِ، فَإِذَا غَسَل يديهِ خَرج مِنْ يديْهِ كُلُّ خَطِيْئَةٍ كانَ بطشتْهَا يداهُ مَعَ الْمَاءِ أَو مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْماءِ، فَإِذَا غسلَ رِجليْهِ خَرجَتْ كُلُّ خَطِيْئَةٍ مشَتْها رِجْلاُه مَعَ الْماءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ حَتَّى يخْرُج نقِياً مِنَ الذُّنُوبِ)

رواه مسلم

توجّهت للمكان الشّاغر في الصّفّ الأخير، وسددت الفرجة الموجودة بين الصّفّين، وبعد أن كبّر الإمام تكبيرة الإحرام "الله أكبر" فهنا هو قد أعلن توقّف زمن الدّنيا وأطلق صافرة انطلاق رحلة زمنية قصيرة للقاء الله، فبعد أن تردّد الكلمتين المفتاحيتين "الله أكبر" فهنا ستكون قد أعلنت على توقيعك لعقد اتّصال بالله ببنود أهمّها فتح لقلبك، ضع كلّ شيء وراءك، ولا تفكّر بأيّ شخص، انس همومك وتغافل عن كلّ ما يشغلك، تناس مرضك، وادفن سقمك في دوامة نسيان مؤقّتة، انشغل بربّك عن ما يراودك، ما من همّ يزاحم أفكارك وما من مصيبة حرّكت عواطفك، ما من مرض أرّق أعضاءك، يكفيك فقط أن تتّصل بربّك، لكن لا تنس أن تحمل معك وسائل اتّصال تتيح لك إشارة مرتفعة أثناء اتّصالك...

اسجد لله واقترب، عسى أن تفتح لك أبواب السّماء من حيث لا تدري...

*****

أنهيت صلاتي مستطعما سيلان سكينتها على شغاف قلبي، ومتنغّما براحتها المتموّجة على ذرّات صدري، راحة عظيمة تتحدّث بالسّكينة عن نور القلب ونقاء الصّدر.

أكثر ما يثير تعجّبي وهو هؤلاء الّذين لم يستلذّوا يوما طعم حلاوة صلاة الجماعة، هل هم متنعّمون أم محرومون؟

هناك نوع من البشر من يستلذّونها لمدّة ثلاثين يوما بشهر رمضان المبارك فقط، لكن بمجرّد انقضاء هاته الأيّام، يعودون لروتينهم اليوميّ، وكأنّهم أخذوا إجازة سنويّة، لكنّهم جهلوا بعظم أجر صلاة الجماعة، وإن كان المؤمن لا يعذر بجهله، فقد قال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: (أَلا أَدُلُّكُمْ عَلى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوا: بَلى يَا رسولَ اللَّهِ. قَالَ :إِسْباغُ الْوُضُوءِ عَلى المَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخطى إِلى المَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بعْد الصَّلاةِ، فَذلِكُمُ الرِّباطُ، فَذلكُمُ الرِّباطُ)

ابتعد النّاس عن ربّهم كثيرا وجعلوه أهون ناظر إليهم، لدرجة أنّ القرب من الله تعالى أضحى آخر همّهم، لكن هل ترى لو سألهم الله عزّ وجلّ عن سبب تقصيرهم بحقّه وزهدهم فيه، فهل ستكون الإجابات: كنت متعبا ... كنت جاهلا... لم أجد وقتا... لم أجد من

ينصحني... كنت نائما... مقنعة؟ بئسا لكذا إجابات، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم...

*****

فتحت باب المنزل، فشعرت بالهدوء الّذي خيّم على أرجائه، لدرجة أنّني أسمع نسمات الرّيح المداعبة لحواف النّوافذ، وبعد بضع ثوان استطعت أن أتحسّس صوتا صادرا من غرفة أمّي، اقتربت من الغرفة لأفاجأ بسماع آيات: ﴿مَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ، أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ال سَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾

إنّه صوت فاطمة، هي تقرأ بصوتها العذب سورة الملك لأمّي، أدرت ظهري وصعدت الدّرج متّجها لغرفتي بالطّابق العلويّ، جلست على مقعدي ورحت أحدّق في سقف الغرفة شاعرا بالغيرة من فاطمة، فهي الآن ستكسب أجر القراءة والإصغاء، أحسدك يا فاطمة جدّا، أنا أحسدك...

سرحت بأفكاري المتزاحمة قليلا، حاولت التّفكّر والتّأمّل، فلامست شعلات أفكاري سقف الغرفة في ماهية العلاقة القائمة بين أمّي وفاطمة...! هل هي علاقة أمّ بزوجة ابنها؟ لا أشعر بأنّها كذلك مطلقا، هي أكثر بكثير، هي رابطة قويّة بين أمّ وفلذّة كبدها الّتي لم تلدها. إنّ أغلب علاقات الزّوجات بأمّهات أزواجهم متذبذبة،

تكتنفها الغيرة، الحقد والضّغينة، رابطة بأساس ضعيف ومرهقة لكامل الأطراف.

لا شعور أتعس من أن يصطدم الرّجل بشبح الاستغناء، يضطّر لتلويث يده بدماء الفقدان، ملطّخا قلبه بمرارة الاشتياق، لابدّ عليه من تغليب كفّة على كفّة، أمّه أو زوجته...

فحينما تجبره رسائل أمّه على التّفريط في زوجته، فسيشعر هنا بأنّه مقبل على غمس أصابع يده في وحل ظلمة الحياة، فيتعتّم نوره وتذبل براعم عيونه، ويضيق صدره فلا هو قادر على التّفريط في زوجته، ولا قادر على تحمّل غضب أمّه، ففي آخر المطاف أغلب الرّجال سيغمسون أيديهم في وحل الفقدان في سبيل رضا أمّهاتهم، كلّ هذا بسبب وسوسة شيطان، غيرة مميتة ببطء، ضغينة دفينة، قلّة عقل ودين، لتصبح الضّحية الأكبر هي الزّوجة المسكينة الّتي لا ذنب لها...

*****

لا يفقه معظم النّساء مكامن سعادة الرّجل ووجودها، يجهلون الكثير عنه معتقدين بأنّه حيوانيّ يلهث وراء قطع اللّحم المصوّرة في هيئة نساء، متخيّلين بأنّ فرحة الرّجل كامنة في جمال المرأة الّتي سيتزوّجها، وبأنّه سيملّ منها كصورة حائطيّة، يغيّرها بمجرّد أن يملّ بمشاهدتها، لا أبدا...

فللرّجل بعد زواجه فرحتان متناضلتان مع شعوره، أمّا الأولى فتتمثّل في نيل رضا والديه للتّقدّم للفتاة الّتي أحبّها وأعجب بها، لكن مفهوم الحبّ هنا ليس حبّا من أوّل نظرة كما قيل في الرّوايات، فهذا الحبّ لا يتجاوز محيطه، حلقة مفرغة ذات حدود رقيقة، وبنيان غير مرصوص بأساس يدعى الجمال، فسرعان ما تذبل أزهار هذا الحبّ بمرور السّنوات، لكنّ الحبّ الحقيقيّ الّذي ينبع من شغاف القلب، ويصدر من باطن الفؤاد، هو حبّ وإعجاب لأخلاق الفتاة ودينها، وتمسّكها بقيمها ومبادئها وخصالها الدّاخلية، فيكسر الرّجل لأجلها جميع قضبان سجن تقاليد الجهل، ويلامس بقوّته أفق الكون، مزيحا كلّ الحواجز الّتي وضعتها قبيلته، نازعا تلك السّلسلة الّتي طوّقت رقبته فارضة عليه زواج الأقارب، فيفوز في الأخير بمعركة ضدّ الجميع، شاعرا بأنّه أسعد مخلوق على وجه البشريّة، لأنّه سيظفر بالفتاة الّتي أحبّها هو...

أمّا الفرحة الثّانية، فيتمثّل جوهرها في علاقة الأمّ بزوجته، فلا بدّ منه بأن يشعر بالتّوافق، الانسجام والطّهر نابعا من هاته العلاقة، لكي يهنأ باله ويرتاح ضميره ويسعد قلبه...

إن لا قدّر الله، ولم تحطّ هاتان الفرحتان رحالهما على جنان الرّجل، فإنّه سيتجرّع مرارة أليمة وتتمايل على سحنته المنقبضة أشباح الأحزان، والقنوط، وتنبعث من عينيه نظرات موجعة، تئنّ من قلبه وظلمة صدره، ويشعر بأنّ زواجه لم يتعدّ حدود مفخرته

بنزعه رداء العزوبيّة، لكن للأسف يكتم صرخاته ولا يفصح عنها لأحد حتّى لصديقه...

وعلى حين غرّة وبينما أنا سارح بأفكاري في أفق مخيّلتي، شعرت بشيء لامس شعري، فتحرّكت جزعا وتحذّرت ملتفتا في خوف:

- لقد أفزعتني بالله عليك...

ضحكت فاطمة ملء شدقيها، ثمّ قالت والمرح يقطع صوتها:

- انظر لنفسك يا جبان، لقد انسحبت الدّماء من عروق وجهك من شدّة الرّعب.
- لم يحصل ذلك، فقد كنت شارد الذّهن وحسب، ولم أنتبه لدخولك، كفاك سخريّة.
- لقد نامت أمّي خديجة بعد أن قرأت لها سورة الملك.

نهضت من مقعدي ومسكت رأسها ثمّ طبعت قبلة خفيفة لطيفة على جبينها وهمست:

- بارك الله فيك عزيزتي وأدامك لنا يا ربّ، وأطال عمرك.

رفعت رأسها خجلا، وحدّقت إليّ بعينيها اللاّمعتين وخدهّا المتورّد، ثمّ انعقدت شفتها فجأة وامتقع وجهها، فاستطردت:

- ما بك عزيزتي، هل تشعرين بشيء ما؟

انبعثت من عينيها نظرات تعيسة تتكلّم عن الحزن الّذي يخالجها، ثمّ قالت بصوت مخنوق:

- عزيزي هل سنرزق بالذّرّية يوما ما؟

لامست خدّها اللّطيف، وكأنّني ألامس قلبها ثمّ قلت بصوت مداعب:

- بالطّبع، إن شاء الله...

قاطعت كلامي ودمع العين يسبقها:

- لكنّني خائفة من أن أموت قبل أن أنجب، أو أن يرزقني الله ذرّية وتوارى الثّرى يوم ولادتها، أو أن أنتقل لرحمة الله بعد الإنجاب، خائفة جدّا يا عزيزي، خائفة جدّا ...

شعرت بأن كلماتها قد فلقت قلبي نصفين، فرحت أحضنها وكأنّني أخبرها عبر ذلك الحضن، جميع الكلمات الّتي لن تصل لقلبها، فأحيانا كلّ ما يحتاجه الإنسان هو حضن فقط، ليعبّر عن آلاف الكلمات الموجودة بقلبه، لأنّ الكلمات ليست دائما تخرج كما هي نابعة من القلب، قد يعترض طريقها الكبرياء أو الخجل، لكنّ الحضن سيكون كافيّا عن كلّ شيء، ويغني عن أيّ كلمة، اكتنفتها بحناني وغمست تفاؤلي بين أحضانها ثمّ قلت:

- لقد قيل :(تفاءلوا خيرا تجدوه)، لذلك اجعلي أملك بالله كبيرا ولا تيأسي من رحمته، ولا تكفّي عن الدّعاء، وسيرزقنا

الله تعالى بطفلة جميلة، أو طفل جميل، وكلاهما سيحملان ملامحك الأجمل.

تنهّدت فاطمة تنهيدة مرحة لامست فؤادي، وعادت البسمة على وجنتيها، ثمّ قالت في صوت مرح:

- إذا هل ستظنّ بأنّها ستكون طفلة تشبهني؟
- أعلم أنّ كلّ شيء في علم الغيب، ولا أحد يعلم سرائر ما كتب له، لكنّني أفضّلها طفلة صغيرة لها نفس ملامحك، ابتسامتك، عينيك، وجنتيك، خدّيك، لطافتك، براءتك، روحك، قلبك، غضبك ونرفزتك، أريدها نسخة جميلة طبق الأصل من نسخة أجمل...

وضعت أصبعها على شعري ثمّ قالت ضاحكة:

- إذا هل ستحبّها كما تحبّني؟ أو أكثر؟
- سأحبّكما سويّا...
- وإن لم أنجب لك ذرّية، هل ستبقى تحبّني بنفس درجة الحبّ؟
- طبعا حبيبتي، سأبقى أحبّك وأكنّ لك نفس الاحترام الّذي عهدته منّي...
- عدني إذا، عدني بأنّك لن تكرهني إن لم.....
- أعدك، أعدك يا فاطمة...

الفصل الرّابع

الحبّ أحجية الوجود، ليس فينا من فقهه، وليس منّا من لم يدركه بعد، هناك شغف يشعرنا بالأمان، الحنان والسّرور، وآخر

يهاجمنا بأشباح الخوف، القسوة والأحزان، ودّ نفرّ إليه حين وجوده، وآخر نهرب جزعا حين قدومه، ولع ندعو الله عتمة وضّاحا شاكرين بقاءه وآخر ندعو ليلا و نهارا مترجّين ذهابه، هوى تنبسط ملامحنا له رغما عنّا فور هبوب نسيمه، وآخر تنقبض ملامحنا لحرارته المحرقة حين اقترابه، حبّ منعش يغشى قلوبنا حياة جديدة، ويثلج صدرنا أملا، اكتفاء وسعادة، وهناك آخر يسلبها جميعها كملك موت، ويغيّر نظرتنا للحبّ كما ينظر الأسير اليائس إلى جدران سجنه...

كثيرا ما تتردّد على الشّفاه حروف كلمة ' أحبّك ' لكن يا هل ترى هي تترجم أحاسيس باطنيّة فائضة من جنان الفرد؟ أم مجرّد أحاسيس عابرة وتمثيليّة رومنسيّة بطلها اللّسان وسمفونيّتها موسيقى عذبة ذات نوتات كاذبة...؟

الحبّ أطهر وأنقى شيء في الوجود مهما دنّسه البشر، كيف لا وهو شطر لا يتجزّأ من الإيمان مرتبط معه بعلاقة وطيدة في قوله صلّى الله عليه وسلّم:

(وَالذي نَفسي بِيدِهِ، لا تَدخلونَ الجنةَ حتى تُؤمِنُوا، ولا تُؤمِنوا حتى تَحابُّوا)

وبعد أن أثلج عبد الهادي صدري بكلماته الطّيبة الجميلة الّتي تمايلت على شغاف قلبي، كما تتمايل أوراق الشّجر على الأغصان في فصل الخريف، خطر على بالي فجأة أن أُقرأ رواية ما، فلم يكن منّي

إلّا وأن اتّجهت لمكتبة المنزل وجلبت أوّل رواية لمحتها عيناي، جلست بمقعد على شرفة المنزل المطلّة على الجزء العلويّ من برج إيفل، وتركت لنفسي فرصة في الانغماس بين صفحات الرّواية في شغف شديد، وعلى حين غرّة اقتحم عبد الهادي انفرادي وقال:

- ما الّذي تطالعينه؟

أدرت رأسي إليه، رسمت بسمة خفيفة على شفتي ثمّ قلت:

- رواية الأجنحة المتكسّرة لجبران خليل جبران...
- رائع جدّا، هل يمكنني مشاركتك المطالعة؟
- بكلّ سرور عزيزي، اجلب مقعدا وتعال واجلس بجانبي، سأضع الرّواية في المنتصف لكي تتسنّى لك القراءة.
- لدي فكرة أجمل، ما رأيك لو نقرأ سويا بصوت مسموع؟
- وكيف ذلك؟

تقاطرت نسمات مرحة على لحيته المتناثرة قائلا:

- أقرأ لك بصوتي جزء، وتلقين على مسامعي الجزء الموالي وهكذا دواليك، ما رأيك؟
- هه! فكرة جدّ رائعة وجميلة، فلتبدأ أنت.

*****

أتممنا قراءة رواية الأجنحة المتكسّرة، بعدما أضاف الصّوت المسموع رونقا وجمالا من نوع خاصّ، طغى على كلمات الرّواية الجميلة الّتي تحمل بين دفّتيها الكثير والكثير من الرّسائل القويّة الّتي تنقل معاناة الشّاب البسيط أو الفقير، في الظّفر بالفتاة الّتي يحبّها، في ظلّ طغيان أصحاب النّفوذ، الأموال والمصالح العائليّة، فلميسوري الحال حصّة الأسد في الزّواج، فلقد قيل قديما بأنّ المال لا يشتري السّعادة، لكنّ قائليها لو سافروا عبر الزّمن لزمننا هذا، لغيّروا رأيهم أكيد، وقلبوا موازين المقولة من نفي لتأكيد...

حيث أنّ الغني أصبح يستغلّ نفوذه في الإيقاع بأيّ فتاة يريدها، يشتري بأمواله قلبها، جسدها، روحها وحبّها وحبّ من أحبّها، ويدفن سعادتها في مقبرة قصره، فما أتعس الفتاة الّتي تستيقظ من غفلة شبابها، فتجد ذاتها في منزل رجل يغمرها بأمواله وعطاياه، ويؤنسها بكرمه، لكنّه لا يستطيع أن يشبع روحها حبّا وحنانا...

أمّا الأدهى والأمرّ، حينما تترك الفتاة رجلا بسيطا قد أحبّها، وأنعم عليها بقلبه، واتّخذها رفيقة حياته، وأرهق على قدميها عرق جبينه ودم فؤاده، واضعا بين كفّيها ثمار أتعابه وغلّة اجتهاده، تقطع أحبال الوصال، خائنة العهد في سبيل رجل أغنى منه، فما أتعس هذا الرّجل الّذي يستفيق فجأة من غفلته على القلب الّذي حاول ابتياعه، بمجاهدة الأيام وسهر اللّيالي، قد قدّم مجّانا لرجل أغنى

منه، على طبق من ذلّ، وكأنّ المال في نظر الفتاة هو السّعادة الأبديّة...!

فور انتهاء الرّواية أزحت بصري عنها، وحدّقت بلمعة عيني إلى عبد الهادي ثمّ قلت بصوت خافت تتموّج في سحنته معاني الفضول، الأمل والحبّ:

- حبيبي، هل تحبّني كما أحبّ الرّجل سلمى كرامة؟

*****

نعم أحبّك يا عزيزتي.

وكيف لا أحبّك وجناني ووجداني أنت تزعّمت،

دخلت بصيرتي، فؤادي وروحي، واستوطنت،

أنت ومرآك كلّ ليلة في خيالي جلت وتنقّلت،

أنت الهواء الّذي إن لم أتذوّقه اختنقت،

أنا مثل الوردة الّتي إن تأمّلتها انتعشت،

وإن اندثرت واحتجبت عنها ذبلت،

كافحت في عقلي الضّمير الّذي مات،

وقال قلبي إنّه من أجلك سيستأنف الحياة،

كيف لا وقد سمعت منك أعذب الكلمات،

إنّي وددت البقاء معك إلى أن تتلاشى الحياة،

لكنّي توقّفت لأستردّ الأنفاس، وأقول لك بضع كلمات،

أحبّك. ..

في قلبي نار وكلّ ذرّة فيه احترقت

عذّبني هواك، وإخماد ناره ما استطعت،

كيف لا؟

وأنا ترشّفت بريق عينك وارتويت،

وعن الدّنيا بما فيها استغنيت،

وعلى أعلى قمم في الجبال وقفت،

وبكلمة أحبّك يا فاطمة ناديت:

أحبّك يا فاطمة...

*****

يوم بعد يوم، الأيّام تتوالى وتجري كلمح البصر، متسابقة ضدّ الزّمن، غدا سيكون عيد زواجي الأوّل بعبد الهادي، انتظرت هذا اليوم الرّائع على أحرّ من الجمر، لم تستطع أجفاني مداعبة النّوم، ولم ترض الأفكار الكثيرة مفارقتي، هل سيكون هذا اليوم مهمّا لعبد الهادي؟ هل سيتذكّره كما تذكّر سابقا عيد ميلادي؟ هل سيعتبر

هذا اليوم مهمّا أم لا؟ هل سيشكر وجودي في حياته؟ كلّها أسئلة كثيرة تنزل على عقلي كالبرق بين الفينة والأخرى، وبينما أنا كذلك حتّى اقتحم صوت صراخ مخيف حلقة أفكاري، أعدت الصّوت على مسامعي، إنّه صوت أمّي خديجة!

نهضت من سريري ثمّ حدّقت يمينا فلم أجد عبد الهادي، انتصبت وقبضت على صدري في خيفة، ثمّ توجّهت لباب الغرفة بكامل الهدوء، وضعت يدي على مقبض الباب وفتحته، نزلت الدّرج بخطوات متثاقلة متمايلة، لأفاجأ بثلاثة رجال ملثّمين في فناء المنزل، قبضت على أصابع يدي عسى أن أخفي عبرها خوفي، ثمّ قلت في صوت خافت بائس:

- من أنتم؟ وما الّذي تريدونه؟

لم يردّ عليّ أحد، وكأنّ الخرس تغشّى مسامعهم، اقتربت منهم بخطوات هادئة، وإذا بي ألمح جثّة قد لطّخت الدّماء جسدها، اتّجهت نحوها ورحت أتفرّس ملامحها، وفجأة قبضت على صدري في فزع:

- عبد الهادي...! عبد .....

سقطت أرضا ثمّ حملت جسده بكامل قوّتي وقرّبته من صدري، غمسته بين أحضاني ورحت أهزّ جسده علّه يستفيق لكن دون جدوى، اتّشحت سحنتي حزنا، ذارفة دموع الأسى والحزن، ألقيت شفتي الذّابلة على خدّه المتجمّد، وهمست بكلمات يائسة، بائسة:

- عزيزي، لا تمت أرجوك. بالله عليك لا تتركني ...

توضّعت يد أحد الرّجال على كتفي، ثمّ قال:

- انهضي يا فاطمة. انهضي.

وفجأة بدأت صورته بالتّلاشي، شعرت بصداع شديد، استطعت بمجهود أن أفتح عينيّ فازداد صدى الصّوت بمسامعي:

- هيا انهضي يا فاطمة... انهضي عزيزتي

اتّسعت عيناي دهشة وقلت:

- عبد الهادي؟
- ما بك عزيزتي، هل حلمت حلما سيّئا؟
- نعم، لقد حلمت بأنّني .....

وقبل أن أكمل كلامي، قاطعني عبد الهادي قائلا:

- الحلم السّيّئ من الشّيطان لعنه الله، استعيذي بالله منه وهيا انهضي لنصلّي صلاة الفجر، هيا بسرعة يا فاطمة ...

*****

الشّوق وهو ذلك الثّقب الأسود الّذي يتّخذ الفؤاد مقرّا له، فحينما تبعدك الحياة عن من تحبّ سيتزايد محيط استعماره، ويحتلّ أعضاءك الضّعيفة بأسلحته القويّة القاسيّة، طامحا في

احتلال منطقة قفصك الصّدريّ، ويطلق على مسامعك أصواتا أليمة تتموّج في مقاطعها معاني الحنين والاشتياق، فلا أيّ سلاح يستطيع التّغلّب على العدوّ الغاصب، غير نسمات المشتاق إليه، فما أصعب أن تجبرك الحياة على مفارقة أحبّائك لدرجة أنّك لا تستطيع محادثتهم أو حتّى الهمس قائلا: اشتقت إليكم.

لكن ما أجمل أن يترك لك هذا الشّخص ذكرى من روحه ونفسه، وإن كانت الذّكريات قابعة في أجمل مكان بالذّاكرة، لكنّ الذّكرى المادّية لها طعم خاصّ رائع، رائحة لطيفة، أصوات خياليّة مطربة، تقرّبها إليك فتشعرك بأنّك معه، تقرّبها من أذنك فتسمع صدى صوته يتململ في مسامعك، تضعها بصدرك فتحسّ بأنّه بين أحضانك...

*****

بعد إتمامي الوضوء، توجّهت لغرفة الصّلاة، جهّزت السّجادات ثمّ انتظرت مع عبد الهادي قدوم أمّي خديجة، وبعد أن ارتدت تلك العباءة السّوداء، الّتي اشتراها لها المرحوم من المدينة المنوّرة منذ ثلاث سنوات، شرع عبد الهادي في الصّلاة بنا..

انتهت الصّلاة الّتي أشعرتني بأنّني في عالم ثان، تتموّج في ثناياه سكينة وطمأنينة وراحة كبيرة، بعد أن أبحر بنا عبد الهادي في عالمه الجميل، بصوته المشابه لصوت المقرئ ماهر المعيقلي، فارقتنا أمّي وتوجّهت لغرفتها علّها تكمل ما تبقّى من نومها لغاية طلوع

الشّمس، بينما اتّخذ عبد الهادي لنفسه مكانا هنالك، وأخذ في قراءة صفحات من الذّكر الحكيم، أمّا أنا فقد اتّجهت لغرفتي، علّي أسرق ساعة أو اثنتين من النّعاس الّذي لا زال محشورا بين أجفاني، عسى أن يخفّ عنّي الصّداع الشّديد، المؤلم الّذي لم يرض مفارقتي منذ يومين...

*****

بعد توجّه عبد الهادي للجامعة، كانت الشّمس قد دقّت بخيوطها الحريريّة على أرجاء المنزل، لتنثر عبر نسماتها رداء ذهبيا، يطبع جدران المنزل، واقتحمت نغمات زقزقة العصافير مسامعي، فلم يكن منّي إلّا وأن فتحت نافذة غرفتي ورحت أرتّب غرفتي، وبعد إنهائي، شعرت بمشاعر الشّوق قد ملأت عواطفي، فرغم أنّني هاتفت والديّ منذ يومين، إلّا أّن بؤر الشّوق المحشورة في فؤادي تتّسع يوما ما بعده يوم...

فتحت حاسوبي المحمول ثمّ دخلت على بريدي الإلكتروني، وضعت بريد أبي في خانة المرسل إليه ثمّ ضغطت على خانة الإرسال، وتركت الفرصة لشوقي في أن يعبث بالكلمات كيفما يشاء:

والداي العزيزان! رغم أنّني سمعت صوتكما منذ يومين، إلّا أّن مشاعر الحنين والشّوق قد لامستني، ولم ترض مفارقتي، أتمنّى من الله عزّ وجلّ أن تكونا بخير، اشتقت لرائحتكما ولحضنكما

جدّا...سأتّصل بكما في أقرب وقت إن شاء الله، أحبّكما جدّا ...ابنتكم فاطمة.

لمحت السّاعة الّتي تشير للثّامنة صباحا وللتّاريخ المدوّن أسفل الشّاشة15 أوت 2014، اليوم هو عيد زواجي الأوّل بعبد الهادي، دارت الأرض دورة كاملة حول نفسها، ومرّت 356 يوما بلمح البصر، تناثرت أسئلة كثيرة على رأسي من كلّ حدب وصوب، هل سيتذكّر عبد الهادي هذا اليوم أو سينساه؟

أؤمن كثيرا بالتّفاصيل الصّغيرة الّتي تلامس شغاف القلب، وتطرق أبوابه دون أيّ استئذان، تفاصيل تغمر صدرك حنانا وسرورا، وتبعث في روحك شعورا غريبا بالسّعادة، تفاصيل بسيطة كالاهتمام بك، الاشتياق إليك حين غيابك، مراعاة مشاعرك وحساسيّتك المفرطة، تذكّر أيّامك المهمّة والاهتمام بما تحبّ، الوقوف في صفّك حين سقوطك، الفرح لسعادتك والحزن لتعاستك، الشّعور بك والدّعاء لك في ظهر الغيب، كلّها تفاصيل صغيرة نابعة من جنان المحبّ وتبعث في صدرك شعورا جميلا بالسّعادة والسّرور.

وعلى حين غرّة استدارت الغرفة في بصري، وتبعثر الأثاث في عيني شاعرة باهتزاز الجدران من حولي، تثاقلت جبهتي وسقطت على جبيني كما يتساقط البرق على أعالي الأشجار، فقدت فجأة التّحكّم في أطراف جسدي فلم يكن منّي إلّا وأن سقطت أرضا كسقطة جندي، قد اخترق الرّصاص جسده وأحرق عظامه، بالكاد أشعر بأصابع قدمي، وبعد هنيهة تغشاني الهدوء وبدأ التّجمّد

ينتزع من جسدي رويدا رويدا، كما تنتزع الأفعى جلدها، فاستطعت بمجهود أن أقف على قدميّ، مسكت إحدى أقدام السّرير لكي أتيح لنفسي قوّة أكبر، ثمّ ضغطت على جهدي فاستطعت النّهوض، مسكت هاتفي وقمت بمهاتفة أمّي خديجة بسرعة شديدة، انتظرت بضع ثوان، لم يطل الأمر كثيرا، وما ان فتحت الخطّ حتّى ضغطت على شفتيّ وبصوت تقطعه التّأوّهات قلت:

- أمّي خديجة، لا أستطيع الحراك.....

الفصل الخامس

كثيرا ما تروادك أحاسيس حارقة منتصف اللّيل، شعور مزعج يراود قلبك تعاسة، ويقطع لك تذكرة سفر لبلاد الحزن والتّشاؤم، عالم محزن يذكّرك بأنّ كلّ شخص ظننت بأنّه لن يفارقك، سيفارقك لا محالة، رغم كلّ المعاهدات إلاّ أنّه سيأتي أكبر مفرّق في هاته الدّنيا فاسخا بنود صلتكما، سالبا منك ما تحبّ...

في منتصف كلّ ليلة سيكون عدوّك الأوّل هو قلبك، سيقف ضدّك متربّصا بكلّ ما أوتي من قوّة، يحاربك بأسلحة أحرّ من الجمر، سيحاول أن يرضخك أرضا كصخرة هامدة تندب حظّها التّعيس، تحت أعاصير الأسى والحزن، فهو أكثر شيء حاول الإطاحة بك، هل ستتوقّع بأنّه سيقف في صفّك حين سقوطك؟

بالله عليك إن كان قلبك لا يرحم روحك هل سيرحمك أولئك؟ إن كان قلبك يقسو عليك، هل سيحنّ النّاس عليك؟

قلبك هو الوحيد من يرهقك في ساعات متأخّرة من اللّيل الحالك، يسقط على صدرك كسفا من السّماء ملؤها حزن وأسى وتشاؤم، إن كنت سعيدا يذكّرك بالحزن، إن كنت حزينا يزيد جرعة الحزن بصدرك، إن تذكّرت أحبّائك يذكّرك بأن ستفارقهم يوما ما، إن تذكّرت أحلامك الجميلة الّتي قاربت على تحقيقها، يلسعك بأحاسيس مرهفة، مرهقة، تشعرك بأن تكذب على نفسك فقط،

ولن تحقّق يوما ما تمنّيته، تحسّ بأنّك قد كذبت على نفسك أكبر كذبة وأطلقت عليها مسمّى " الطّموح "

هل تخال بأنّ قلبك سيترك لك الفرصة حتّى للوقوف على قدميك، معلنا عودتك لأجواء الحرب...؟ هل سينتظر حملك المتأنّي لسيف الصّبر...؟

صدّقني لن يرحمك مطلقا، مجرّد هفوة بسيطة منك، سيجثيك على ركبتيك ويلفحك بسيوفه الحارقة، سيوف نارها أسى ولهيبها حزن ورمادها دموع...

مجرّد لحظة ضعف منك سيكلّفك خسارة بتلك الحرب الطّاحنة معه، الحرب الّتي ليست بالدّماء والسّيوف والبنادق وغيرها، لا.بل حرب بالتّعاسة والآهات والعبرات.

موعد عملي قد حان، اتّجهت لغرفتي ثمّ رحت ألبس هندامي، فلم يكن من فاطمة إلّا أن استفاقت، وقامت بمساعدتي في تجهيز نفسي، وبعد انتهائي نزلنا للطّابق السّفلي متّجهين لغرفة أمّي، دققت الباب فلم تستجب أمّي، فهمست فاطمة:

- لازالت نائمة على ما أعتقد، هل أوقظها لك؟
- لا، لا عليك، افتحي لي الباب وحسب من فضلك.

دخلت فاطمة الغرفة وفتحت لي الباب ثمّ نادتني:

- عزيزي ...بإمكانك الدّخول الآن.

وضعت خطواتي بحذر شديد، واقتربت من أمّي النّائمة كالطّفل الرّضيع. منكمشة هي حول نفسها على جانبها الأيمن، تأمّلت نور وجهها محدّقا لملامحها المتآكلة من التّجاعيد، حاولت التّفكّر والتّأمّل في أمي فتبعثرت أفكاري، لأنّ أفكار النّفس كالزّهرة تضمّ أوراقها أمام الظّلمة ولا تقدّم روحها لضباب اللّيل، سقطت جبهتها على عينيها، وبرزت شعيرات الشّيب من على رأسها، مرّت السّنين بلمح البصر، فانتقصت من عمر أمّي، لم أشعر مطلقا بسباق أمّي ضدّ الزّمن فهي الآن بعمر الخمسين، لا يخيّل لي مطلقا بأنّ ملك الموت قد يتلذّذ يوما باستنزافه روح أمّي، نقشت بعقلي وقلبي صورة لملاك لا يشيخ، ولا يهرم أبدا، ملاك خالد بحياتي يدعى أمّي، لا شيء محزن للإنسان أكثر من حضوره جنازة أحد والديه، يكون شاهدا على وفاتهم، شاعرا بألم الفراق مع كلّ دقيقة هو بعيد عنهم، لم تنقض بعد ثلاث سنوات منذ أن ووري والدي الثّرى، ولحدّ الآن لازالت ندوب الصّدمة والفراق مرسومة بقلبي، ولم تشف بعد، فكيف سأتقبّل فراق أمّي لا قدّر الله ..؟

قرّبت شفتي من خدّ أمّي الأيسر وطبعت عليه هالة حبّ، مستنشقا عبر الهالة روحها، حنانها وطهرها، منتعشا بنسماتها اللّطيفة، ثمّ همست:

- إلى اللّقاء أمّي الحبيبة.

*****

قرأت دعاء الخروج من المنزل، ثمّ قصدت الشّارع المؤدّي لمحطّة انتظار الحافلات، وجّهت بصري إلى ساعة يدي الّتي تشير إلى السّاعة السّابعة والنّصف صباحا، لم يتبقّ سوى حوالي عشر دقائق على قدوم الحافلة المؤدّية لجامعة باريس، توجّهت مسرعا بخطوات واثقة إلى محطّة الانتظار، وبعد وصولي هنالك سلّمت على المتواجدين بمقاعد المحطّة بتحيّة الإسلام، ثمّ اتّخذت لنفسي مكانا بين المقاعد الشّاغرة، فتحت هاتفي وأخذت أُقلّب الصّفحات الإلكترونيّة المعنية بالأخبار، وبينما أنا كذلك حتّى دنا منّي رجل وطلب منّي الجلوس بجانبي، كان الرّجل عربيّا فقد سلّم عليّ بتحية الإسلام ثمّ أردف يقول باللّغة الفرنسية:

- معك الأخ سليم من أصول عراقيّة، ولدت هنا بفرنسا وأعمل مدرّبا رياضيا في رياضة الكاراتيه.
- متشرّف بك أخي... عبد الهادي من الجزائر وأعمل هنا أستاذا بجامعة باريس. تشرّفت بك.
- لي الشّرف أكثر... منذ متى وأنت مقيم هنا؟
- منذ نصف سنة تقريبا على ما أعتقد...
- لم تطل الإقامة كثيرا إذا... مقيم حديثا...
- نعم... هل يمكنك أن تعذرني فقد قدمت حافلة الجامعة.
- بالطبع... ولنا في الملاقاة يوم آخر إن شاء الله.
- إن شاء الله... السّلام عليكم.

تركت الرّجل المدعو سليم بعد أن وصلت الحافلة، وحمدت الله على قدومها في الوقت المناسب فلم أحبّ أن يكثر عليّ الأسئلة، ويتعرّف عليّ أكثر، ونحن لم نعرف بعض سوى بضع دقائق...
صعدت إلى الحافلة منتظرا دوري كما البقية، انتظام جميل يترجم أخلاقا إنسانية رفيعة وراقية جدّا، سلّمت على العم جورج سائق الحافلة بتحيّة الإسلام كما اعتدت، فردّها عليّ كما يجب، بعد أن أضحى عالما بمعناها المتمثّل في الدّعاء للشّخص من كلّ آفة بالسّلامة، إضافة لمعرفته بضرورة ردّها كما يجب رغم أنّ ديانته مسيحيّة...

جلست على مقعد شاغر بالحافلة، ثمّ أخرجت هاتفي النّقّال، وانغمست في قراءة أدعية المسلم، أكثر دعاء يشعرني بكرم الله على عباده هو دعاء:' لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير **فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مَنْ قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ حِينَ يُصْبِحُ ، كُتِبَ لَهُ بِهَا مِائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيَ عَنْهُ بِهَا مِائَةُ سَيِّئَةٍ ، وَكَانَتْ لَهُ عَدْلَ رَقَبَةٍ ، وَحُفِظَ بِهَا يَوْمَئِذٍ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي ، كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ"**

يا لله ما أعظمك، وما أكرمك، وما أجمل هداياك، ومكافآتك وما أبخل عبادك عليك، وما أكثر إقبالك عليهم، وما أكثر إعراضهم وابتعادهم عنك...!

فنحن وإن كنّا نسعد بمجرّد مكافأة ماليّة يقدّمها لنا ربّ العمل، إن بذلنا مجهودا مضاعفا، وإن أحيانا نستعمل طاقاتنا المكبوتة لأجل الحصول على علاوة مادّية، فكيف نبخل على أنفسنا بهدايا قد تحجز لنا مقعد صدق عند مليك مقتدر، ونبخل عليك يا ربّ وأنت الغنيّ ونحن الفقراء إليك؟

إنّ أكثر ما أثار في نفسي غيرة على وطني، وهو بقية الأشخاص المحيطين بي، لم يعرني أحد اهتمامه، ولم يلتفت أحد حتّى لرؤيتي، لوهلة شعرت بأنّني غير مرئيّ، هذا يقرأ كتابا والآخر يقلّب جريدة، كلّ منشغل بفعل شيء ما، أوّلا انتبهت لمدى تقديسهم للوقت، وعدم إضاعته هباء، يستغلّون حتّى الدّقائق لفعل شيء مفيد، فتذكّرت شباب بلدي الجزائر الّذين يعشقون تضييع الوقت فيما لا ينفع وكأنّ الوقت بأيديهم، يقتلون الوقت بأيّ شيء غير نافع ولو كان نميمة...

إضافة إلى أنّهم لا يتركون المارّة بحالهم، لا يتركون الصّاعد والنّازل، يتحدّثون في ذاك وهذا، ولا يتركون مارّا في طريقهم إلّا بعد قيامهم بعملية مسح شاملة لكامل جسده، من رأسه لأسفل قدمه، فلان صعد، فلان نزل، ذاك اشترى، الآخر باع، تلك تزوّجت، تلك تطلّقت، تلك عاهرة ...!

إن تكلّم الشّباب في الرّجل فلا ضرار، فالرّجل لا يعاب كثيرا، إن تكلّم فيه على عكس الفتاة المسكينة الّتي لا تملك حصنا لنفسها، سوى شرفها فإن خدش شرفها كذبا ما الّذي سيحصنها؟

*****

ملمحي علميّ، تخصّصي علم الكيمياء، كلاهما وجهان لعملة واحدة، لكن هاته العملة لم تشكّل أبدا قضبانا لزنزانة تمنع أحلامي، وأهدافي في الحياة.

دراستي وسيلة، وتحقيق العلم غاية والغاية تبرّر الوسيلة طبعا، النّضال لتحقيق الحلم وسيلة، وتحقيق الحلم غاية فلم يكن العمل يوما حلما بالّنسبة لي، فالعمل وسيلة حتمية على كلّ فرد يتنفّس على الأرض، لغرض تحقيق غاية تحقيق الاكتفاء الذّاتي، أمّا الحلم فهو جزء لا يتجزّأ من مسيرة أيّ إنسان في الحياة، في ظلّ تشويه رموزه في العالم العربيّ عامّة، والمجتمع الجزائريّ خاصّة، حيث أنّهم جعلوه ثابتا بثلاث متغيّرات، متمثّلة في الدّراسة، العمل، والزّواج، لكي نحقّق المعادلة وجب الملاءمة بين المتغيّرات الثّلاثة فيما بينها...

لكن بالله عليكم منذ متى أصبحت الحياة قفصا بقضبان نكسرها بعد بلوغنا، منفتحين على حياة قد عاشها غيرنا؟ نفعل كما فعل من هم قبلنا، وكما سيفعل من سيأتي بعدنا...

ماذا تسمّى الحياة المبنية على التّكرار وإعادة ما فعله الآخرون؟ نعيش لأهداف مشتركة ونموت لأجلها، نحارب بنفس الأسلحة ضدّ نفس الأعداء، فهنا نحن سنشابه ذلك العصفور، مكسور الجناحين الّذي سقط في نهر جارف، حمله تيّار قويّ إلى الأعماق...

التّكرار تلك الكلمة المقيتة الّتي تميّز طابع جهنّم، جسد يحترق لغاية بروز عظامه، ثمّ يكسى لحما ليحترق مرّة أخرى، كأنّ شيئا لم يكن، وهكذا دواليك، ألن تصبح حياتنا جحيما من الحركات الرّوتينيّة المكرّرة الّتي تنهش جسدنا ...؟

ننهض، نعمل، نأكل، ننام ثمّ ننهض، ونعيد الكرّة في اليوم الموالي، دون ترك أيّ إرث يتذكّرنا به العالم، فهنا بكلّ بساطة، نحن قد أصبحنا أشخاصا عاديين، فاقدين لجرعة طموح، نفعل كما يفعل غيرنا، نحيا حياتهم ونتذوّق ميتتهم كمخلوقات ظلّ تهفو إلى النّور...

للأسف غرسنا بعقول أبنائنا بذرة متحجّرة بأفكار خاطئة، عمّرت تلك البذرة ونمت في عقولهم ونشأت بأساس غير متين، أساس يدعى ' المستقبل هو الدّراسة '

ادرس لتعمل، ادرس لتتزوّج، ادرس لتشتري سيّارة، ادرس لتشتري ما تريد، ادرس لتسافر، ادرس لتحقّق أحلامك، ادرس، ادرس، ادرس....

فبعد أن كان من المفروض أن تكون غاية الدّراسة تحقيق العلم، استبدلت اللاّم ميما لتصبح عملا، ومنذ متى أصبحت الأحلام مقرونة بالدّراسة؟

أليس المستقبل أن تكون قائمة أهداف لتحقيقها؟ أهداف ستترك بها إرثا يتذكّرك بها العالم أجمع، أليس المستقبل وهو أن تتغيّر للأفضل؟ بالله عليكم هل هي هاته الحياة الّتي نستحقّ عيشها؟

*****

ألقيت درسي على الطّلبة الّذي تمحور حول برنامج للتّنبّؤ بالبنى البلّورية الّذي هو لازال في طور الإنجاز، فإذا ما رسمت بنية جزيء عضويّ على سطح منديل ورقيّ، فقد يغيب عنّا بأنّه هنالك ملايين الطّرق التّي يمكن أن تتراصّ بها هاته الجزيئات في البنية البلّورية ثلاثية الأبعاد، لكن في الوقت الحاضر فإنّ مجموعة من الكيميائيّين، ومبرمجي الحاسوب تمكّنوا سويّا من النّجاح في التّنبّؤ بالبنية ثلاثية الأبعاد لخمسة جزيئات عضوية معقّدة التّركيب، وذلك بخريطة ثنائية الأبعاد فقط، وسيعلن عن هذا البرنامج في السّنة المقبلة بالمملكة المتّحدة، حيث أنّ هذا البرنامج سيخفّض كثيرا من تكلفة تصميم، وصنع الأدوية والمنتجات الكيميائيّة الأخرى، كما سيوسّع فهمنا لأساسيات الكيمياء...

شعرت اليوم بأنّ فاطمة بها شيء ما، أو تريد إخباري بشيء ما، ولم ترض البوح به، أعتقد بأنّها كانت تلمّح لهذا اليوم الجميل، لكنّني لم أشأ إفساد الأمر، لأمكّن نفسي من صنع مفاجأة صغيرة لها، فأحيانا حينما نقدّم مفاجآت لمن نحبّ، قبل أن نسعد الشّخص المراد، نحن نحاول أن نسعد أنفسنا، لأنّ فاقد الشّيء يعطيه ببذخ، لأنّه أكثر البشر شعورا بمرارة فقده...

وعلى حين بغتة تساقطت سهام الكلمات على أفكاري، فلم يكن منّي إلاّ وأن أخرجت ورقة وقلما، ودوّنتها بلا أيّ تأخير أو تأجيل،

صياغة أولى، ثانية، ثالثة ثمّ رابعة، لحين أن شعرت بأنّ الكتابة أضحت ملائمة وجميلة رغم بساطتها، ثمّ قمت بإعطائها عنوانا

" سنة على أوّل لقاء "

*****

لقد مرّت سنة كاملة منذ أوّل لقاء،

دارت الأرض حول نفسها على يوم العطاء،

السّنة كانت أشبه بالدّهر،

ليست كأي سنة عاشتها السّماء،

كنّا مع بعض في الحلوة والمرّة،

في السّراء والضّراء،

يا من أوّلك حاء، أوسطك باء، وآخرك ياء

سنة ...

عشناها بحلوها ومرّها،

بنرجسها وعلقمها،

بطيبها وشرّها،

بحسناتها وسيّئاتها،

بحنانها وقساوتها،

سنة ...

الأحلام والتّخيّلات،

المخاصمات والشّجارات،

الأحزان والعبرات،

الحبّ والنّسمات،

الضّحك والقهقهات،

قد تغيّرت في نظري الحياة،

بفضلك أنت يا فاطمة،

أحببتك حياة، وسأظلّ كذلك بعد الممات،

فيا ربّ ...يتحقّق كلّ ما في بالك،

ويكتب لك الخير أين ما كان

ويجعل أوّل لقاء معك كآخر لقاء.

*****

بيدي اليسرى باقة ورود حمراء، طيّبة الرّائحة تجول في أنفاسي، ومفتاح المنزل بيدي اليمنى، وبمجرّد أن فتحت الباب، حتّى شعرت

بالسّكون والهدوء في أرجاء المنزل، وكأنّ طبقة من الهدوء قد تغشّت غرفه، بنغمات مشبعة بالحيرة والدّهشة صرخت:

- فاطمة... فاطمة...!

لم تستجب فاطمة لندائي، فرحت أبحث مسعورا في جميع الغرف لكن لا أثر لأيّ شخص... صعدت الطّابق العلويّ فلم أجد أحدا، بكلّ سرعة أخرجت هاتفي النّقّال من جيبي وضغطت على رقم فاطمة، وبعد بضع ثوان حتّى تفاجأت بالرّنّة صادرة من غرفتي، تحسّست المصدر لأجد الهاتف موضوعا بالسّرير، اختلط الحابل بالنّابل فلم يكن منّي إلاّ وأن شددت أزري ودوّنت رقم هاتف أمّي، وبعد بضع رنّات فتحت على مسامعي الخطّ لأبادر قائلا:

- مرحبا أمّي... أين أنتما بالله عليك؟
- مرحبا بنيّ، لا تخف سنأتي بعد حوالي ساعة ..
- أمّي أين أنتم؟
- هدّئ من روعك بنيّ، نحن بالمستشفى وحسب.
- مستشفى وما الّذي أخذكم للمستشفى؟
- لا أعرف من أين سأبدأ لك، لكن فاطمة قد انتابها صبيحة اليوم تشنّج بأطرافها، ولم تستطع التّحكّم بحركتها، إضافة لصداع شديد برأسها، فلم يكن منّي إلّا وأن اتّصلت بسيّارة أجرة وأخذتها لأقرب مستشفى.

تطايرت سهام الغضب منّي فمسكت على أصابع يدي ثمّ أردفت أقول:

- ولماذا لم تتّصلوا بي؟
- يا بنيّ... فاطمة هي السّبب نبّهتها بضرورة الاتّصال بك، لكنّها كانت لي بالمرصاد ولم تشأ أن تقلقك...
- أيّ قلق يا أمّي؟ أيّ قلق بالله عليك... هل فاطمة بخير الآن؟
- الآن هي بقاعة الكشف، دخلت منذ هنيهة.
- بأيّ مستشفى أنتم؟
- لا عليك يا بنيّ، ريثما ينتهي الكشف سنأتي للمنزل.
- أمّي بالله عليك، أخبريني بأي مستشفى أنتم؟
- حسنا... حسنا... نحن بمستشفى سان لويس، ستجدني بقاعة الانتظار بالطّابق الثّاني.
- حاضر... لا تتحرّكي من مكانك، دقائق وأكون عندك، سأتّصل بك ريثما أصل.

*****

بخطوات أسرع من البرق، صرت بالمستشفى... وبعد أن اتّصلت بأمّي اتّجهت مباشرة لغرفة الانتظار بالطّابق الثّاني... وجدت أمّي وفاطمة مع بعضهما، اتّجهت مباشرة لفاطمة، جلست بجانبها ثمّ

حدّقت قليلا بملامحها الذّابلة ونظرتها المذيبة للفؤاد، عيناها مكحولتان بأشباح الخوف والارتعاب، وما إن لمحتني حتّى ألوت عنقها واتّشحت معانيها، وضعت كلتا يداها بجوف يديّ قائلا:

- فاطمة عزيزتي. ما الّذي يؤلمك؟

أجابتني بنظراتها المثيرة للشّفقة وبصوت مرتبك تقطعه التّنهّدات:

- لا أعلم، شعرت بصداع وفقدت القدرة على التّحكّم بأطراف جسدي، لكنّني الآن بخير...
- ولماذا لم تتّصلي بي؟

خفضت رأسها دون أن تنبس ببنت شفة فاستطردت:

- لا تقلقي عزيزتي، ستكونين بخير إن شاء الله... لا تقلقي...

وعلى حين غرّة دخل الطّبيب وقطع حديثنا، اقترب منّا، حدّق بفاطمة قليلا، ثمّ وجّه بصره إلي، وكأنّ التّردّد قد سيطر على شفته، ثمّ أردف يقول:

- هل أنت زوجها سيدي؟
- نعم دكتور، أنا كذلك...
- إذا تعال معي إلى مكتبي أحتاجك على انفراد من فضلك.
- طبعا... طبعا...

لبّيت طلب الدّكتور واتّجهت معه إلى مكتبه، جلست على مقعد المكتب، وكلّي هواجس مخيفة فملامح الدّكتور المنقبضة لا تبشّر بالخير، وبمجرّد أن جلس الدّكتور حتّى بادرت قائلا:

- من ماذا تعاني زوجتي يا دكتور؟

أغمض عينيه وكأنّه يحاول الولوج لأعماق قلبي، ثمّ قال بصوت متلعثم:

- لا أعرف من أين سأبدأ لك سيّدي.

صمت قليلا وكأنّ كلماته رفضت الخروج عبر شفته، تنهّد قليلا ثمّ استطرد:

- سيّدي، يؤسفني إعلامك بأنّ زوجتك تعاني من السّرطان...

تسمّرت بمكاني جزعا، واكتنفني الخوف واتّسعت حدقة عيني دهشة، ولم أنبس ببنت شفة فأكمل الدّكتور حديثه:

- السّيدة فاطمة بها ورم دماغيّ للأسف، وهو بادرة غير حسنة عن بداية نشوء سرطان المخّ، الأشعّة قد أظهرت بقعا صغيرة في أماكن متفرّقة من الدّماغ، أيّ أنّ الورم لم يتطوّر بعد، وبما أنّه أكتشف مبكّرا فهذا ما سيسهّل العلاج...

وبعد أن غصت في عمق أحاسيسي تشجّعت بصوت بائس:

- وما هي نسبة الشّفاء والعلاج؟
- نسبة العلاج مرهونة بالاكتشاف المبكّر، ومدى مقاومة المريض وسرعة استجابته للعلاج، لكنّني أبشّرك بأنّ النّسبة قد تتجاوز السّتين بالمئة، أمّا في ما يخصّ العلاج فإنّه سيتمّ بمركز أمبروز باريه الجراحيّ، وهنالك سيتمّ تقديم جرعات من الكيماويّ، لحرق الخلايا الشّاذّة ومنعها من التّكاثر واستهداف خلايا جديدة، إن نجح العلاج فسيتمّ تقديم ورقة كشف دوريّة، لتفادي ظهور الورم مرّة أخرى، تقوم عبره السّيدة فاطمة بالكشف الدّوري على فترات، لغاية التّأكّد مئة بالمئة من الشّفاء، وعدم ظهور المرض مرّة أخرى، أمّا في حالة فشل الكيماويّ فإنّ الأطبّاء سيلجؤون للجراحة أو العلاج الإشعاعيّ..
- هل أخبر زوجتي أو ستخبرها أنت؟
- لا أخبرها أنت، فأنا طلبت محادثتك على انفراد على هذا الأساس، لذلك رجاء تفادى أن تصدمها، وأخبرها بهدوء وروية، وابتعد عن أيّ شيء قد يثير التّشاؤم في نفسيّتها.

أغمضت عيني وكأنّني أريد أن أعيد بأجفاني الدّموع إلى أعماق قلبي، ثمّ قلت بصوت تقطع الغصّة نغماته:

- حاضر يا دكتور. حاضر.

لم أسر رمية سهم، حتّى تأوّهت وتيبّست أضلعي، كما تتيبّس البذور في فصل الصّيف، باب قاعة الانتظار على يميني وقلبي على يساري، سمّيت الله ثمّ وضعت خطواتي بثبات إلى الغرفة، وكأنّني بين العناصر المتحاربة، كالأمل الضّعيف بين اليأس الشّديد والحزن العميق، أبصرت وجه فاطمة المرتجف من الخوف، وملامحها المنقبضة من الفزع، بمجرّد أن دخلت الغرفة حتّى أتت إليّ مسرعة، وبصوت أمرّ من عويل الموت قالت:

- خيرا يا عبد الهادي... ماذا قال لك الدّكتور؟

امتنعت الكلمات عن ملامسة شفتي، ورفضت الجمل العبور عبر حلقي، فرحت أحتضنها وكأنّني أعبّر لها عن كلّ الكلمات الّتي لم ترض الخروج، ابتعدت عنّي فاطمة وحدّقت في ذهول شديد... أغمضت عينيّ، وكأنّما أحاول أن أرتشف تلك الدّموع المنسكبة رغما عن أجفاني، أعادت فاطمة تلك الكلمات على مسامعي:

- تكلّم عبد الهادي رفقا بي... ماذا بي؟

الفصل السّادس

مرض داهمني على حين غرّة، الرّحلة الشّاقة المضنية قد بدأت للتّو، استطعت الغوص في عمق المسائل، لتحليلها، فهمها ومواجهتها بكلّ قوّة، فبدا لي كأنّني أقف أمام حوض عكّرت مياه مشاعره، أحرّكه بين الفينة والأخرى...

كدت أن أفقد قدرتي على التّحكّم بذاتي، لولا أن عادت المياه رويدا رويدا لصفائها، مددت يدي لبعض مخزون من احتياط الصّبر الكامن بأعماقي، مستعيدة بذلك بعضا من آمالي وأسلحة عبد الهادي الموجودة بثكنتي، المساهمة بتخفيف آثار الحرب الغاشمة الحاقدة بأثقالها المختلفة.

صداع شديد مؤرّق لجهازي العصبيّ، تشنّجات أطرافي باتت تكدّرني، يلامسها شعور بالغثيان، وعدم القدرة على الحركة، أترنّح أرضا متخبّطة من شدّة الألم المميت ببطء، أمّي خديجة بجانبي تحاول مساعدتي على النهوض، حاولت الاتّصال بعبد الهادي فمنعتها، أعادت الكلام على مسامعي فثبطتها، فلم يكن منها إلاّ أن اتّصلت بسائق أجرة وأخذتني للمستشفى...

بمستشفى سان لويس منتظرة، بأوجاع أليمة صامتة، أترقّب دوري بخفقات قلبي، وهواجس مخيفة تعاكسها أحاسيس منبسطة على ملامحي، توحي لي بأنّ روحا قد عمّرت في بطني، أعتقد بأنّني حامل وستكون لي قريبا ذرّية، الأفكار تتهاطل على عقلي متسارعة

كالصّقيع، وبعد هنيهة حان دوري فاتّجهت لغرفة الكشف بكامل الهدوء، سلّم لي الطّبيب ورقة الكشف لتصير فجأة كلّ أفكاري متلاشية.

طلب مني الطّبيب أن أنزع إكسسواراتي وحجابي، فحدّثته دون أن أنبس بكلمة وكأنّني أقول:

- أنا فتاة مسلمة...

فأكمل الدّكتور حديثه قائلا:

- البسي القبّعة الزّرقاء مع البدلة تلك... وتعالي ورائي.

مفزوعة أنا، قلقة كثيرا من غرفة بيضاء موحشة، دخلت الغرفة بعد أن سمّيت الله لأستلقي على سرير مخيف، وكلّي أحاسيس وهواجس مرعبة، دخلت تلك الحجرة المخيفة المريبة بعد أن وضع الطّبيب فوق رأسي آلة المسح، ثمّ ضغط على زرّ ما فبدأ السّرير في الولوج لعمق الحجرة الضّيقة، خرج الطّبيب من الغرفة، ليأتيني صوته عبر الزّجاج العازل بواسطة الميكروفون:

- اثبتي سيّدتي من فضلك... ريثما ينتهي الكشف.

وبعد انتهاء الكشف أخبرني الطّبيب بأنّه سيعلمني بالنّتائج بعد بضع دقائق، عدت لغرفة الانتظار وجلست بجانب أمّي خديجة، أين أخبرتني بأنّ عبد الهادي سيأتي بعد دقائق، وبينما أنا منهمكة في عمق التّخيّلات حتّى دخل عبد الهادي الغرفة، بنبرة غاضبة

تخرج من بين شفاهه، لم أنبس ببنت شفة ولم أفكّر في شيء سوى في نتائج الكشف، وبعد هنيهة دخل الطّبيب وطلب محادثة عبد الهادي، وبقيت مع أمّي خديجة يكتنفنا الصّمت من كلّ الأرجاء.

عاد عبد الهادي للغرفة فنهضت مسعورة، مترقّبة من مكاني وكأنّني أريد أن يضيئ بحديثه قلبي ويخفي وميض هواجسي، وبعد أن ترجّيته ليتحدّث، مسك يدي وقال بكلمات متعلثمة تخرج من شفاهه:

- عزيزتي... لا تخافي ولا تحزني، قدّر الله وما شاء فعل، لقد اكتشف الدّكتور خلية سرطانيّة بدماغك...

بمكاني متسمّرة، أطراف جسدي متجمّدة، ترافقها أحاسيس مختلطة، أشعر بالبكاء وفي نفس الوقت أشعر بتعطّل أجفاني، هدوء مميت، لم أنبس بأيّ كلمة، ازداد ضغط عبد الهادي على يدي ثمّ أردف يقول:

- أنت امرأة قويّة وأنا إلى جانبك، وأمّي كذلك، وفوق كلّ هذا الله معك، وحينما يكون الله في صفّك جيوش العالم لن تقدر على مجابهتك، كوني صبورة وحسب وقاومي فقط...

*****

قاومي ....

مهما أدركك اليأس والألم كابدت،

مهما ارتشفت الوجع والعذاب تأوّهت،

انتصبت مواجهة وكلمة لا للأسى تلفّظت،

إذا أصابك الله بضرّ وأنت له اصطبرت،

بآية قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا فقهت،

قاومي ....

وقت تحرّي مقدار سلوانك عند المحنة حلمت،

لم تقنطي من رحمة الله وبقضائه وقدره رضيت،

لم تتذوقي طعم السّكينة ظلمة ودمعت،

حين زيارتك بكرة بالقهقهة ما بخلت،

قاومي يا عزيزتي...

يا من غسل المرض ذنوبك بعدما صبرت،

جازاك الله أجرك بغير حساب فسعدت،

يا من طهّر السّقم خطاياك بعدما تصبّرت،

أثابك الله حياة جديدة فابتهجت،

قاومي يا فاطمة ...

ستشفين بإذن الله صبرا، وبالدّعاء عليك ما بخلت،

وتسجدين شاكرة بعدما تعافيت،

ستبقى معاناتك حكاية عنوانها كيف صبرت،

في طياتها كيف تصدّيت للألم وتلفّظت لا، وضحكت،

قاومي عزيزتي ... قاومي يا فاطمة ...

*****

أنا والسّرطان مستلقية، ولعدوانه نظيرة، على بصيلات شعر متنافسة، فهذا العدوّ اللّئيم هو يحاربني معتمدا على رأسي كمقرّ يلوذ به في الفرار، كعدوّ جبان، لتطويق الحرب على رأسه أنا عازمة، وللهجوم المعاكس فارضة، بحلبة ملاكمة أنا موضوعة ،حلبة ليست ضدّ إنسان مثلي... لا، حلبة سيكون محاربها نفسي فإمّا أن أتفوّق على نفسي وأطرد هذا المتطفّل من جسدي، وإما أستسلم لوجوده بين شراييني وأوردتي، لذلك لا مفرّ سوى مهاجمته والضّرب بكلّ قوّتي، فهذا الملاكم اللّئيم يعشق الانتصار وتجري في عروقه دماء الاستيطان، يريد أن يرمي منافسه في عالم النّسيان، مفرغا بطّارية قوّته بعد التّغذّي عليها، لتتحول حياة منافسه لجحيم الانهزام بين أركان المستشفيات، لتبدأ هنالك رحلة المحاولات البائسة، كوسيلة غايتها واحدة، القضاء على هذا الوحش المتمرّد الّذي لن يرضى أبدا بتوقيع هدنة السّلام، واضعا بين عينيه هدفا وحيدا يدعى الانتصار.

مقرّ الحلبة سيكون بمركز أمبروز باريه بعد أن قابلت هنالك الدّكتور بيار... الإنسان الخلوق الّذي يحمل في جوفه أخلاقا إنسانية

راقية، تنبعث من إحساسه الرّقيق بمعاناة مرضاه، وتعامله الّذي لا يخلو من كامل الرّقّة، الحنان والانسانيّة، بالإضافة لصبره وتعديله الجميل لمزاج مرضاه، ساهرا على تفاؤلهم، ومنيرا رؤيتهم للحياة الّتي أظلمت في عيونهم.

وعدني الدّكتور بيار بأنّني سأشفى، إن أنا تحلّيت بالصّبر والثّقة المطلقة بقوّتي، وأطعت منهجه الّذي سيرسمه لي، فلم يكن منّي إلّا وأن التزمت بنصائحه، عالمة بأنّني على بعد خطوة من إطلاق رصاصة انطلاق حرب ضارية ضدّ دخيل لعين بجسدي، حرب ضارية متكوّنة من ثلاث جولات على الأقلّ، وذلك بعد أن باءت جميع مفاوضاتي معه لتوقيع هدنة الانسحاب بالفشل.

إذا لابدّ عليّ من تسليح نفسي بكامل الأسلحة الّتي ستعينني على هزيمة المرض، فإن كان الموت حتميّا فلماذا لا يموت المرء شريفا وهو يحاول!

فقد يعيش بعد محاولته ونضاله، وقد يموت، لكن خير من أن يموت دون جهاد، فأقسمت بالله العليّ العظيم على أن تكون معركتي ضدّ هذا العدوّ الغاصب، معركة ضارية وشرسة ولا هوان أو ضعف بجولاتها، وليفز فيها الأقوى.

جثّة هامدة بلا حراك، من الجولة الأولى، بعد أن أرديته طريحا يتخبّط من شدّة الألم، شعرت بأنّ المعركة ستحسم لصالحي، واضعة ثقتي بالله أوّلا و بنفسي ثانيا، معتمدة على حليفيّ في المعركة، عبد

الهادي و أمّي خديجة، و متجلّدة بدعاء والديّ الغائبين، البعيدين عن عيني، القريبين من شغاف قلبي، مهيِّئة جميع الظّروف المواتية لهزيمة هذا الوحش فيما تبقّى من جولات.

*****

لم يتبقّ لي سوى بضع جولات لا تتجاوز الأربعة على الأكثر... ضدّ الأنثى الشّرسة كما قد أسميته، فلا يمكن لأيّ أنثى شرسة مهما بلغت ضراوتها أن تهزم امرأة بقلب رجل... لا يمكنها أبدا.

بدأت رحلة الألف ميل بخطوة تمثّلت في النّيل من جسدي اللّيلة تلو الأخرى، تخلّلها جفاف لحلقي وتغيّر لون لعابي ورائحته، ممّا حجب عنّي إمكانية تذوّق الطّعام وقبوله كالأيّام الخوالي، لكن هذا اللّئيم اعتبر هاته التّنازلات نوعا من إعلاني لراية الاستسلام، عدوّ غبيّ جاهل بقوّتي، ولا يعرف بأنّني امرأة قويّة ترفض الانهزام ولن ترضخ أبدا له، إذا كان لابّد عليّ من مجاراة المرض، والأخذ بنصائح الدّكتور بيار المتمثّلة في تغيير منظومتي في الأكل من الطّعام اليابس إلى المطحون، إضافة إلى الامتناع عن بعض الأطعمة، وارتداء الملابس القطنية لتفادي تفاعلها مع جرعات الكيماويّ، زيادة إلى هذا الامتناع عن جميع العوامل السّلبية المثيرة للتّشاؤم في نفسيّتي، كوسائل كثيرة غايتها واحدة، هزيمة الوحش المتمرّد بجسدي الضّعيف.

في صفّي كامل الأسلحة الفتّاكة لهزيمة هذا العدوّ اللّئيم، لكن لم يتبقّ لي سوى حسن استخدام الأسلحة، وعلى كلّ مريض قد أثقل السّقم كاهله، أو على أيّ إنسان قد شعر بالضّعف اتّجاه أيّ شيء معيّن، ألا يضعف أبدا ويظلّ يحارب إلى آخر قطرة دم مستعملا جميع آلاته العظيمة ضدّ عدوّه، ويثق بقدرته الكامنة بقلبه مؤمنا بقواه الخارقة الّتي تجعل منه بطلا، فأيّ إنسان ضعيف بداخله وحش متمرّد قويّ في سبات.

وتحسب أنّك جرم صغير، وفيك انطوى العالم الأكبر، وطالما أنّ الإنسان قد اخترق الفضاء سابقا وتوضّع به، رغم اختلاف طبيعته وظروف العيش به، متمكّنا من تجاوز كامل المعيقات للتّعايش معه، لذلك يتعيّن عليك أن تتّجه نحو طريق الثّقة المطلقة بعالمك الكبير الّذي يمكّنك من الانتصار على عدوّك اللّئيم، والتّعامل مع هذا العدوّ على أنّه العدوّ الوحيد في المجرّة، تملأ خزّان قوّتك لهزيمته والقضاء عليه، بكلّ ما أوتيت من قوّة، لهزيمته فقط.

العدوّ الغاصب يحتفل بنخب انتصاره عليّ بعد الجلسة الأولى، متراقصا فوق رأسي بعد تفوّقه على بصيلات شعري، لازالت المعركة مستمرّة ولم يتبقّ الكثير، هو يشرب نخب انتصاره المؤقّت على رأسي وأنا أتجرّع مرارة إرهاقي، وتعب أعضائي، شاعرة بطعم المعاناة الّتي استطعمها مرضى السّرطان.

لطالما قرأت عن معاناتهم، وسمعت حكاياتهم الّتي تروي نضالهم ضدّ السّرطان، لكن والله ما تصوّرت يوما بأنّ المرض سيكون مرهقا لهاته الدّرجة...

فحينما يشاهد المرء مباراة فريقين، سيبدو له كلّ شيء سهلا من وراء الشّاشة، لكن ما إن يدخل أرضية الملعب حتّى يشعر بمعاناة اللاّعبين وصعوبة الأمر، لأنّ الإنسان لا يشعر بغيره وهو حكم، كما يشعر وهو يعيشه.

*****

إلى والديّ العزيزين ....

لقد تجاوزت ابنتكم بفضل الله، الجلسة الرّابعة، حيث أنّها كانت موجعة جدّا ومرهقة لأعضائها المتآكلة من النّدوب الحارقة الشّديدة، صامدة أنا يا والديّ، ومرتدية لباس القوّة، الجأش والصّبر، لأضرب عدوّي بكلّ قوّتي، لم يتبقّ لي سوى مواجهة أخيرة وستكون الحسم في معركة التّمسّك بالحياة، ليتوّج الفائز بوسام البطل الأقوى، عسى أن يوفّقني الله لإتمام الجلسة الأخيرة، وأسمع أخبارا جميلة مفرحة إن شاء الله...

أملي بالله كبير وحبّي لكم أكبر، ابنتكم فاطمة قويّة وستشفى بإذن الله، لا تنسوني من دعائكم.

مع حبّي... ابنتكم فاطمة.

*****

وبينما أنا نائمة بالغرفة البيضاء تلك الّتي لازمتني طيلة فترة العلاج، الغرفة الّتي كانت شاهدة على التّأوّهات الّتي طردتها الجرعات منّي بالقوّة، وتلك النّدوب الّتي أحرقتني، الغرفة الّتي كانت بجانبي لحظة، لحظة، حتّى داعب مسامعي صوت خفيف:

- فاطمة... فاطمة... استيقظي.

تفتّحت عيناي الذّابلتان، طاردة ذلك الأرق الّذي عمّر بأجفاني، حرّكت شفتي المرهقة بصعوبة قائلة:

- ماذا هنالك؟

وضع عبد الهادي يده اليمنى بحرارة على تجاعيد خدّي الأيسر الذّابلة ثمّ قال:

- حمدا لله، لقد شفيت عزيزتي. أنت قويّة ما شاء الله.

توسّعت عيناي دهشة، وبصوت يشابه هبوب الرّياح قلت:

- أحقا ذلك؟
- نعم يا بطلتي، لقد قلت لك بأنّ علاجك نجح، فقد اتّضح في الكشف الأخير الّذي قمت به بأنّ الخلايا الشّاذة قد أحرقت جميعا، ولم يبق لها أيّ أثر بدماغك، أنت أقوى امرأة في الدّنيا.

رغم أنّني لم أشعر بأطراف جسدي من شدّة الألم المرهق، لكنّني لوهلة تناسيت كلّ الألم المعمّر بأرجاء جسدي، وتغافلت عن الحروق اللاّسعة لقفصي الصّدري، فرحت أذرف دموع الفرح والسّرور، دموع الرّاحة بعد الشّقاء، عبرات متحجّرة بذلك الغاصب اللّئيم الّذي لم يرض الاستكانة لي بسهولة، حوّلت رأسي لأخفي دموعي المحرقة الّتي استقطرتها أجفاني، دون أن أنبس ببنت شفة، فوضع عبد الهادي أصبعه على دموعي المنسكبة مداعبا إيّاها ثمّ قال:

- ستعودين للمنزل يا عزيزتي... ستعودين يا بطلة.

الصورة المسيئة للرسول صبيحة عيد الأضحى المبارك.

الفصل السّابع

جفاف تامّ قد أكل جدران المنزل، طيلة الأسابيع الّتي غابت فاطمة فيها، الرّائحة الجميلة للنّسائم، قد أعلنت عزوفها عن الانتشار طيلة هاته الفترة، نغمات العصافير المطربة للمسامع قد أعلنت اعتزالها وكأنّها شعرت بأنّ أنقى روح قد غابت من المنزل، ها هي فاطمة بعد طول هاته المدّة الّتي تعادل الدّهر وأكثر، تعود إلى المنزل جالبة معها نفحات من البهجة والسّرور على أرجاء المنزل، انتهى الحداد الّذي أُقامه المنزل علينا، وعاشته قلوبنا رغما عنّا، عادت العصافير لحواف النّوافذ لتستعيد عملها، المتمثّل في سمفونياتها الجميلة الّتي تطرب الآذان، واستعادت النّسائم روائحها الطّيّبة، وكأنّ كلّ شيء في هذا الكون اللاّمتناهي قد شعر بتعافي فاطمة.

أحيانا الإنسان لا يشعر بالنّعمة الّتي لديه إلّا في حالة فقدها، مؤقّتا أو نهائيّا، أمّا من فقدها مؤقّتا، فحظّه كبير، والدّنيا تحبّه كثيرا، والقدر في صفّه، فحينما يشعر بقيمة الشّيء الّذي ابتعد عنه، سيهتمّ كثيرا به بعد عودته، وسيخلف له جميع الأوقات الّتي أهمله فيها، لكن البائس تعيس الحظّ، من يفقد الشّيء نهائيّا دون رجوع، سيتمنّى أكيد رجوع هذا الشّيء لكن في باطنه هو متأكّد بأنّه لن يعود أبدا مهما تمنّى ذلك، فالصّحيح لا يشعر بصحّته إلّا حينما يفقدها، والقويّ لا يحسّ بقوّته إلّا حينما يضعف، والغنيّ لا يستشعر غناه إلّا حينما يصيبه الفقر، والّذي لديه زوجة عظيمة قد

وضعت أساسها بسقفه، لا يشعر بعظمة وجودها إلّا حينما يسقط الّسقف من على رأسه في غيابها، والّذي لديه والدان لا يشعر بقيمتهما إلّا حينما يغيبان عن حياته، فالموجود دائما لا يشكر والمفقود دائما شديد الطّلب !

*****

أتى عيد الأضحى المبارك، مواكبا لانتشار نسائم فاطمة في المنزل، ليصبح العيد عيدين، عيد قدوم فاطمة للمنزل، وعيد الأضحى الواجب فيه تقديم أضحية لله عزّ وجلّ، اتّباعا لسنّة ابراهيم عليه السّلام، حيث أنّه عاش طوال حياته وهو يرجو الله تضرعا في ولد، ومن رحمة الله الواسعة أن منّ الله تعالى على ابراهيم بولد، بعد أن بلغ من الكبر عتيا، يشاء الله أن يمتثل ابراهيم له، معتكفا لمدّة من الزّمن بعيدا عن أهله، ثمّ ها هو ابراهيم عليه السّلام يأمره ربّه بذبح فلذّة كبده اسماعيل عليه السّلام، ولده الوحيد، الولد الّذي طالما ترجّاه ابراهيم عليه السّلام، ما هذا ؟

إنّه لأمر تنوء بحمله الجبال، ويهتزّ له عرش الرّحمان وتذوب الحمم البركانية لأجله، فما كان على ابراهيم فعله سوى السّمع والطّاعة راضخا لأمر ربّه ومستجيبا لحكمه، فلم يكن منه إلّا وأن قال لابنه في صوت يشابه ضجيج الأمواج:**(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ)**

فلم يكن من اسماعيل سوى الطّاعة لأمر الله، وبلهجة مملوءة بالخضوع والأخلاق قال :(**قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)**

استكان ابراهيم لحكم الله في ابنه، تقلّصت ملامحه، واصفرّ وجهه، وانتشرت سحابة سوداء على جبينه، شاعرا بأنّ صبره على وشك النّفاذ، أمسك السّكّين بين يديه لتتدفّق فجأة عبراته، وتضطرب أحشاؤه، شاعرا بالخوف المستدبّ في صدره، قرّب السّكّين من ولده بعد أن طرد حبّات العرق اللّئيمة الّتي تراوده، مرّر السّكّين حول عنق اسماعيل بيد أنّها لم تفعل فعلها المعهود.

اعتقد ابراهيم عليه السّلام بأنّ السّبب هو خوفه الشّديد الّذي يأكله، الدّقيقة تلو أختها، فأعاد الكرّة مرّة أخرى، ثمّ أعاد مجدّدا، لكن دون جدوى، لم تقطع السّكّين عنق ولده وكأنّ غشاء من الشّفافية قد تغشّاها، دقّت الحيرة على أفكاره المحدودة، صعب عليه الأمر، لم يدر ما العمل، فكّر قليلا... فلم يكن منه سوى التّوجّه لربّه، وبأحاسيس استعطاف ورجاء طلب الرّحمة من ربّه، فلم يكن من الله تعالى سوى أن أشفق عليه، ورحم عبده الضّعيف الّذي التهم الشّيب بصيلات شعره، فكشف الله عن غمّه حين قال :(**وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**).

فجعل الله لإبراهيم عليه السّلام معجزة، تمثّلت في إسقاط كبش سمين حقنا لدماء فلذّة كبده اسماعيل، وفداء له في قوله تعالى :(**وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**)

سبحانك ربّي ما أعظمك، وما أعظم حكمتك! فلو لم يكن اسماعيل بارّا بوالده، ومطيعا لأوامر ربّه، ولو لم يكن ابراهيم رجلا تقيّا مخلصا لربّه، لسنّت منذ ذلك الحين سنّة قتل الأبناء كلّ سنة...!

*****

المسلمون بفرنسا يعانون الأمرّين بعيد الأضحى المبارك، من أجل حجز مكان لنحر الأضحية، الأمر الّذي يدخلهم في صراع مع الزّمن للتّمسّك بجذور الدّيانة الإسلاميّة في ظلّ وجود قوانين صارمة، مفروضة من قبل الحكومة الفرنسيّة، مسارية لقانون الرّأفة بالحيوان الّذي وضعته أوربا، قوانين صارمة تمنع الذّبح العشوائيّ، وتفرض بذلك اقتناء الأضاحي من المذابح المعتمدة دوليّا، والمسيّرة من قبل جزّارين محترفين، والمخلّ بهذا القانون يحال مباشرة إلى المحكمة العليا، ويعاقب بغرامات مالية قد تصل إلى خمسة عشر ألف يورو بالإضافة إلى السّجن لمدّة ستّة أشهر على الأقلّ.

ممّا يضطرّ الجالية المسلمة بفرنسا لاقتناء الأضاحي، مذبوحة ومسلوخة من المذابح المعتمدة، وهذا ما يتسبّب في انتقاص أجر الأضحيّة، والإخلال بشروط قبولها، فرغم وجود جمعيات ناشطة

تهتمّ بمشاكل الجالية المسلمة المغتربة، إلّا أنّ معاناة المسلمين لا تنقضي، في ظلّ وجود جزّارين مخادعين، يوهمون المشتري بأنّ الأضحية مذبوحة بعد صلاة العيد، في حين أنّها لحوم عادية قد تمّ ذبحها قبل الصّلاة.

هنا يقع المسلم ضحية مكر وخداع دون شعور منه، فيعتقد بأنّه قد قدّم أضحية العيد لكن شروط قبول الأضحيّة متزعزعة فكيف سيتقبلها الله؟

لذلك لم تقصّر جمعية المسجد الكبير لباريس بحقّ المسلمين ككلّ سنة، بمبادرتها المتمثّلة في جمع قوائم للرّاغبين في اقتناء أضاحي العيد، وذلك عن طريق التّسجيل ودفع مبلغ لا يقلّ عن مئة وعشرين يورو، والقدوم صبيحة العيد وانتظار الدّور لاستلام الأضحية.

*****

بعد انتهاء صلاة العيد في المسجد الكبير لباريس، تغافر المسلمون مع بعضهم البعض، وكلّ متسامح مع غيره، ليفتح كلّ مؤمن كتابا جديدا في حياته مع إخوانه المسلمين، ورقاته تسامح وعفو ومغفرة.

بعد الانتهاء من المغافرة توجّه المصلّون إلى المكان المخصّص لاستلام أضاحي العيد، مقدّمة في صناديق مغلقة، انتظرت قليلا في الطّابور

قبل أن يأتي دوري، وحينما أتى دوري سلّمت ورقة الدّفع واستلمت الصّندوق المغلق ثمّ استقلّيت سيارة أجرة متّجها للمنزل.

فرغم وجودي بين أحضان عائلتي، لكن رياح التّشاؤم المليئة بغبار طيف الغائبين، لم تكفّ عن الهبوب على شغاف قلبي، فأيّ طعم للعيد دون رائحة تراب الوطن؟

وأيّ فرحة في غياب الأهل والأحباب؟ فرغم أننا كسينا هاته الأيام برداء البهجة والسّرور المشابهة لأرض الوطن، إلّا أنّ رداء الوطن يختلف كثيرا عن رداء الغربة، والعيد هنالك يختلف كثيرا عن العيد هنا، سعادة عميقة مندسّة بين ذرّات هواء وطني مفقودة في هواء فرنسا، ذرّات الشّعور بالألفة والسّكينة لا وجود لها هنا...

بعدما وصلت المنزل استقبلتني فاطمة كما اعتادت، بوجهها البشوش ونضارة وجهها السّاحرة وتتقطّر من ملامحها ابتسامات جميلة، تعبّر عن نقاء روحها، وبنظرتها الرّائعة المشابهة لروعة لؤلؤ البحر المتنغّم في أعماق المحيطات.

- عيدك مبارك عزيزي وكلّ عام وأنت بخير.
- وعيدك مبارك، تقبل الله منّا ومنكم، وكلّ عام وأنت معنا حبيبتي.
- آمين يا ربّ، أجمعين إن شاء الله.
- أين هي أمّي؟
- هي في غرفتها، تغيّر ثيابها.

- حسنا إذا، خذي من يدي هذا الصّندوق، خذي ما تريدين من اللّحم وضعي الباقي في الثّلاجة.
- حسنا. دع عنك.

وبعد أن ذهبت فاطمة إلى المطبخ، نزعت حذائي ثمّ اتّجهت لغرفة أمّي، دققت الباب فخرجت أمّي بنور وجهها اللاّمع، وبركتها الّتي زيّنت خدّيها، فرحت أحتضنها منغمسا بصدرها المليء بأحاسيس الرّأفة والحنو ثمّ أردفت أقول:

- عيدك مبارك يا أحلى أمّ أمدّتني بها الدّنيا، تقبل الله منّا ومنكم صالح الأعمال وأدامك فوق رؤوسنا يا حبيبتي.
- آمين يا بنيّ، حفظك الله ورعاك، عيدك مبارك أعاده الله علينا بالصّحة والبركة كيف هي الأجواء خارجا؟
- رائعة جدّا يا أمّي، هي مشابهة للأجواء هنالك بالجزائر، لكن ليست مثلها، إلّا أنّ وجود الكثير من الجالية العربية هنا في باريس قد غطّت كثيرا على النّقص الّذي قد يشعر به أيّ مؤمن، اكتست باريس حلّة عربية ولو قليلا.

نادت فاطمة بصوت مرتفع، لطيف، مرح:

- هيّا.. هيّا، كفاكم أحاديثا وأسرارا وتعالوا لمساعدتي..
- نعم، معها حق... إذا هيّا يا ابني.. فاطمة تنادينا..

سالت ابتسامة خفيفة على شفتي، ثمّ طبعت قبلة لطيفة على خدّ أمّي، وحرّكت رأسي صعودا ونزولا قائلا:

- حاضر يا أمّي.. سأغيّر ثيابي وأوافيكم.

*****

ماذا لو عاد محمّد؟

كان العنوان العريض الّذي شغل أوّل صفحة من آخر عدد لصحيفة شارلي ايبدو.. عنوان عريض يحمل بين دفّيته الكثير والكثير من البغض المندسّ، والحقد الدّفين لهم ضدّ المسلمين، بحيث أنّ عدد الصّحيفة قد راج عالميّا، بعد أن استطاعت الصّحيفة بفعلتها الشّنيعة الّتي تعتبرها حرّية شخصيّة وأمرا قانونيا، أن تهاجم المسلمين بسهام المساس بدينهم الحنيف، فبعد أن أشعلت الصّحيفة فتيل رحلة المساس بالمسلمين بخطوة إصدارها لأولى حلقات مسلسل الاستهزاء بالدّين الإسلامي سنة 2006 لتتوالي الحلقات مع مرور السّنوات الأخيرة، ها هي الصّحيفة تعود مجدّدا تزامنا مع أجمل يوم عند المسلمين، عيد الأضحى المبارك، وتكشف الغطاء عن الحقد المنبثق من قلوب الغرب اتّجاه المسلمين والدّين الإسلامي، برسمها الكاريكاتوري الّذي يوضّح أحد عناصر داعش وهو يمسك خنجرا بين يديه محاولا ذبح ضحيّته وهو يقول :

- اللّعنة عليك أيّها الكافر.

لتردّ الضّحية عليه قائلة:

- أنا الرّسول أيّها الغبيّ..

*****

بالله عليكم ما هذا الّذي تنشرون؟

هل أنتم على المسلمين حقودون؟

أم تلويث علاقاتنا بالعداء تريدون؟

نحن بشوارع باريس غاضبون،

لهذا الجرم اللّئيم مندّدون،

عن حقّ رسولنا الكريم مدافعون،

جمعية الدفّاع عن المسلمين للمحاكم... ذاهبون،

لقضيّتنا داعمون ولحكمها غير مقتنعين،

حرّية تعبير أطلقتم عليها، هل تمزحون؟

للصّحافة حرّية النّشر، أعقولنا تستغبون؟

لأخذ حقّنا منكم بالقوّة طامحون،

فلا العدل فعل فعلته، ولا نحن قادرون،

فلا بدّ من اتّباع مبدأ الإساءة بالإساءة،

لكن اتّباعا لديننا الحنيف نحن رافضون،

فلربّنا تعالى وحده نحن متضرّعون،

ولأخذ حقّ رسولنا منكم داعون،

فالنّصر من عند الله، ولسنا نحن النّاصرون!

الهجوم على صحيفة شارلي ايبدو.

الفصل الثّامن

الإحساس بالغير وهو شعور بغيرك من البشر، شعور بسقمهم وهمومهم، بحزنهم وسعادتهم، بمصائبهم وكروبهم... بكلّ شيء يحدث لهم.

شعور بمرضى السّرطان الّذين أثقل المرض كاهلهم، وأفنى العلاج أجسادهم، وعتم نور الحياة في عيونهم، وأظلمت بصيرتهم في رؤية طموحهم وأحلامهم.

شعورك بغيرك، يحمل بين دفّتيه شعورا بإخوانك الفلسطينيّين الّذين اغتصبت أراضيهم، وأحرقت حقولهم، كما أحرقت قلوبهم على وطنهم، رمّلت نساؤهم، وشرّد أبناؤهم، شعورك بتلك الزّوجة الّتي قد اقتحموا بيتها في عشيّة يوم، بتابوت مغطّى بكفن دماء زوجها الشّهيد الّذي قتل أثناء جهاده في سبيل وطنه، شعور بذلك الطّفل الميتّم وهو في عمر الزّهور، بعد أن استشهدت أمّه الممرّضة بقنبلة صهيونية فجّرت جسدها، كما تفجّر الشّمس الكواكب بحرارتها، فالقنابل كذلك مثل القاتل الألماني، المدعو هتلر الّذي يقدّسه العالم كشخصية عظيمة، فهي أيضا لا تعرف طعم الشّفقة أو الرّحمة، بمجرّد أن تجدك بطريقها تغتصب جسدك، وكأنّها نسخ أكملت مسيرة هتلر في القتل القاسي.

فالشّعور بالغير جعل الفتاة الأردنيّة عبير صيقلى، تتحوّل من مهندسة بسيطة إلى مخترعة عظيمة، فشعورها بمعاناة اللاّجئين في

ظلّ غياب الإنارة عن المخيّمات، مكّنها من تصميم خيم تحوّل الطّاقة الشّمسية، إلى طاقة كهربائيّة مخزّنة في بطّاريات خاصّة.

الشّعور بالغير ليس فعلا عويصا أو مكلّفا أو مجهدا، يكفي منك أن تغمض عينيك لوهلة من الزّمن فقط، جل بخيالك بعيدا، وابدأ رحلة شعورك بغيرك، تصوّر نفسك في مكان ذلك الشّخص، ماذا ستفعل لو كنت مكانهم؟ بماذا ستشعر؟ هل ستتحمّل جوارحك أم لا؟ يجب أن تشعر بغيرك لتجد من سيشعر بك، يكفي أن تشعر فقط.

فنحن لو بحثنا في كلّ بقعة بالدّنيا عن أكثر إنسان يشعر بنا ما وجدنا أكثر من الأمّ، امرأة عظيمة تحسّ بنا في سعادتنا، في مرضنا وصحّتنا، سعادتنا تسعدها، حزننا يحزنها، إنّ أعذب ما تنطقه الألسنة البشرية لفظة ' الأمّ ' وأجمل مناداة هي :يا أمّي.

فلقد وصف جبران خليل جبران لفظة الأمّ بأنّها لفظة تختبئ في قلوبنا، مثلما تختبئ النّواة في قلب الأرض، وتنبثق من شفاهنا في ساعات الحزن والفرح، كما يتصاعد العطر من قلب الوردة في الفضاء الصّافي والممطر.

*****

والآن بعد تغلّبي على المرض، بتّ أشتمّ وجوده سابقا بجسدي، أعلمني الطّبيب بأن شعري سيستعيد نموّه بعد حوالي خمسة أشهر، وفرض عليّ ممارسة الرّياضة على فترات متواصلة، بالإضافة

إلى الإكثار من الفواكه والخضر، للمحافظة على وزن صحّي، زيادة على ذلك تقليل الزّيوت وعدم الطّهي بها لأكثر من مرّتين، تفاديا لتحوّلها إلى مواد مسرطنة خبيثة.

مسكين هذا اللّئيم المدعو السّرطان الّذي يرهب الكثيرين، هو عدوّ كغيره من الأعداء، إن كنت قويّا، وضربته بكلّ قوّتك، وهاجمته بكلّ أسلحتك، ورفضت توضّعه بوطنك، وتوسّع نطاق احتلاله، ستتغلّب عليه، وسيصبح خاتما بأصابع يدك، لكن إن أنت كنت ضعيفا أمامه وتركت له الفرص السّهلة في الانسلال عبر شرايينك، فهو هنا سيستغلّ ضعفك ويقصفك بكلّ صواريخه، رغم أنّني شفيت وأصبحت متنعّمة في المنزل الّذي افتقدته طيلة أيّام العلاج، إلّا أنّني لم أنس معاناة المرضى الّذين قابلتهم هنالك بالمستشفى، ولم أنس شعورهم التّعيس، حينما فقدوا الأمل في الحياة، ووضعوا سفينة صمودهم بين بحر أمل عميق، وبين محيط تشاؤم أعمق، أناس تنام وتنهض على حلم وحيد، الإبحار للوصول إلى جزيرة الحياة...

*****

استقبلت السّنة الجديدة رفقة عبد الهادي وأمّي خديجة، كغيري من المغتربين الّذين ملأ الشّوق كريّات أحاسيسهم واهترأت أحضانهم، حنينا لأحبابهم البعيدين عنهم، غيرنا هم فرحون باستقبال السّنة الجديدة رفقة عائلتهم، وبين أحضان أحبابهم ونحن

هنا نحنّ لذكريات السّنة الماضية وما قبلها، ويزداد شوقنا لتراب الوطن يوما تلو يوم.

في ليلة الخميس من آخر يوم في سنة 2014 كنّا قد أكلنا سويّا، ثمّ فارقتني أمّي خديجة وكذلك عبد الهادي وتوجّها لشرفة المنزل، بينما بقيت أنا أغسل الصّحون.

بعد انتهائي صعدت للطّابق العلويّ متّجهة لشرفة المنزل، لأكمل الجلسة الجميلة الّتي لم تخل من مشاعر الحبّ والحنان، وضعت لنفسي مقعدا بين أمّي خديجة وعبد الهادي وجلست أحدّق في الأضواء الّتي بدأت في السّطوع من قمّة برج إيفل، بعد هنيهة من الصّمت الجميل الّذي يبعث في النّفس شعورا بالسّكينة، وفرصة جميلة في التّأمّل الهادئ، تحدّث عبد الهادي بصوت تداعبه نسائم السّرور والمرح:

- كلّ واحد منّا يتمنّى أمنية في قلبه ويخبرنا بها، ما رأيكما؟
- حسنا بنيّ. سأبدأ أنا، أتمنّى من الله عزّ وجلّ أن تكون هاته السّنة الجديدة، مولودا يبعث الرّاحة، السّعادة والسّكينة على قلوب المسلمين كافة، وتكشف غمّ كلّ مكروب، وتقضي دين كلّ مدين، وتكون سند قوّة لإخواننا بفلسطين على محاربة العدو الغاشم، وأتمنّى أن يعمّ السّلام أرجاء العالم...

أتى صوت عبد الهادي قائلا:

- إن شاء الله... إن شاء الله... رائعة جدّا أمنيتك أمّي، وأنا أتمنّى من الله عزّ وجلّ أن يطيل في عمريكما وتبقيان بجانبي مهما حصل، ولن يفرّقنا شيء سوى الموت...

تجمّعت العبرات أسفل عيني أمّي خديجة، وبصوت جارح بعذوبته أمسكت يدي من جهة ويد عبد الهادي من الجهة الثّانية ثمّ أردفت تقول:

- إن شاء الله نبقى سويّا ولن يفرّقنا أيّ أحد... أحبّكما كثيرا..
- وأنت ماذا عنك يا فاطمة؟ ما هي أمنيتك؟

تحدّث عبد الهادي، فكّرت قليلا فعصتني أفكاري، ثم سرحت قليلا بذهني ثمّ أنارت البصيرة أمنيتي فأردفت أقول:

- أتمنى أن تكون هاته السّنة فأل خير على عائلتنا، وتكون شاهدة على مولود جديد في العائلة، ويا ليتها تكون طفلة جميلة، فأصبح أنا أمّا وأنت أبا وأمّي خديجة جدّة... أليست رائعة هاته الأمنية لو تتحقّق؟

ضحكت أمّي خديجة ملء شدقيها حتّى برز فكّاها ثمّ قالت:

- تخبرينني بصيغة غير مباشرة بأنّني أكبر في السّنّ...

وضعت يدي على كتفي أمّي خديجة ثمّ قلت بصوت مرح:

- ومن قال بأنّ الجمال سيذبل يوما؟

- إذا لا بأس إن نادتني حفيدتي كما تناديننني أنت...

قاطع عبد الهادي حديثنا بصوت مرح:

- ما شاء الله ما هاته الرّومنسية الّتي نزلت على الأمّ وابنتها فجأة؟
- هل تغار يا ابني؟
- لا، لا أغار... فقط أضحكتني رومنسيتكما والحبّ الّذي يملأ علاقتكما، هيّا، هيّا انظرا للسّاعة، لم يتبقّ سوى دقيقة على تزيين السّماء بألوان السّنة الجديدة...

*****

في حدود السّاعة الحادية عشر والنّصف صباحا، من اليوم السّابع للسّنة الجديدة، اقتحم رجلان ملثّمان مقرّ صحيفة شارلي ايبدوا مسلّحان ببنادق اقتحام من نوع AK47، بعد أن قاما بتهديد رسّامة الصّحيفة المدعوة كورين ري، وأمراها بفتح باب البناية الّذي يفتح بالشّيفرة، لم يكن من المرأة سوى الخضوع لأمرهما والاستكانة لضعفها، فتحت لهما الباب ليتوجّها بدورهما إلى قاعة الاجتماعات، أين كان هنالك اجتماع خاصّ بأسرة التّحرير، بدم بارد لا شفقة بين صفائحه، زهق الرّجلان جميع الأرواح بلا أيّ رحمة، بكلمات تكبير وتهليل وكأنّهم قد نصروا الدّين الإسلامي بفعلهم، أو نصروا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وقد قال الله تعالى فيه " **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ**"

بعد هنيهة من المجزرة القاسيّة، استقلّ الرّجلان سيّارة من نوع سيتروان سي3، حيث استعملاها كوسيلة غايتها الفرار إلى مكان مجهول، بعد فشل المداهمات الّتي قام بها رجال الأمن والشّرطة أعلنت الحكومة الفرنسية إنذارا بالهجوم، تطبيقا لخطّة فيجيبيرات في كامل نطاق ايل دو فرانس، ثمّ انتشر رجال الجيش والشّرطة انتشارا واسعا وسريعا في كلّ مناطق باريس وضواحيها.

حوالي السّاعة التّاسعة والنّصف، أعلنت وكالة الأنباء المدعوّة رويتز عن ثلاثة أشخاص مشتبه فيهم، بعد أن كشفت إحدى المداهمات الّتي قامت بها الشّرطة الغطاء عن أحد المتّهمين و الّذي نسي هويته الشّخصية في إحدى السّيارات المهجورة، والّتي استعملها الهاربان كوسيلة للفرار، بعد تغيير المشتبه به لباسه المدنيّ، لكي يستقلّ سيارة أخرى نسي بطاقة هويّته في لباسه موضوعا بالمقعد الخلفيّ للسّيارة ،وهذا ما ساهم بشكل كبير في الكشف عن المشتبه بهم الثّلاثة، بعد عدّة تحرّيات عن الأخوين سعيد وشريف كواشي ،وصهر شريف كواشي مراد حميد، أطلقت فرنسا حملة بحث شاملة النّطاق وضيّقت الخناق على المشتبه به الأوّل شريف كواشي الّذي قد نشرت صورته في كامل الوسائل الإعلامية الفرنسية وحتّى العالمية.

في اليوم الموالي من المجزرة، حدثت عملية قتل واحتجاز رهائن بمحلّ يهوديّ منطقة بورت دو فانسان من طرف الإرهابي المدعو أميدي كوليبالي، الّذي اشترط على الشّرطة ورجال الأمن إخلاء سبيل

الأخوين شريف وسعيد كواشي لكي يترك الرّهائن، وبعد عدّة محاولات فاشلة في التّفاوض دامت ليوم كامل، تمكّن رجال القوّات الخاصّة من اقتحام المكان وقتل محتجز الرّهائن، اعتمادا على القنابل الصّوتية والأسلحة الرّشاشة في العملية الّتي تكلّلت بإنقاذ الرّهائن.

وفي نفس اليوم تمكّن رجال الشّرطة والأمن بعد عدّة عمليات بحث شاملة في نطاق باريس، من كشف مخبأ المشتبهين بهما، والإطاحة بهما في دمارتان أون غويل بمقر المطبعة بنفس المكان.

حوالي السّاعة الخامسة بعد تطويق الشّرطة ورجال الأمن المكان خرج المسلّحان وتبادلا إطلاق النّار معهم لبضع دقائق، وتزامنا مع اقتحام المتجر اليهوديّ ببورت دو فانسان الّذي احتجز فيه أميدي كوليبالي الرّهائن تم إنزال مروحيّة قوات تدخّل سريع فوق مقرّ المطبعة وتمّ القضاء على المشتبهين وتحرير الرّهينة الوحيدة الموجودة في المطبعة.

بالرّغم من أنّ العمليّة الإرهابيّة هي بمثابة انتقام، غايته ردّ اعتبار المسلمين واسترجاع كرامتهم بالقوّة، ومهما كانت الغاية تبرّر الوسيلة إلّا أّن ديننا الحنيف قد أوصانا بضرورة العفو عند المقدرة، وأبغض مبدأ ردّ الإساءة بالإساءة، وإن كان المسيء كافرا، فقد تعالت الأصوات من قبل كبار الشّيوخ وأصحاب الفتاوي، منددّين بالهجوم الإرهابي الّذي لا يمتّ بأيّ صلة للدّين الإسلامي، ومبادئه الّتي تدعو

للسّلام والتّسامح والّتي ترفض مبدأ السّنّ بالسّنّ، معترفين ببراءة الإسلام من أيّ عمل إرهابيّ متطرّف.

فالجرم المرتكب من قبل صحيفة شارلي إيبدو في حقّ المسلمين والعمل المتطرّف من قبل الإرهاب كلاهما وجهان لعملة واحدة، تضرّ بالكيان الإسلاميّ وتزعزع استقراره، الأمر الحزين هنا والّذي يدمي القلب، ويسقط على خلاياه كسفا من التّعاسة، هو تغيّر نظرة العالم لنا كمسلمين عامة، وتغيّر نظرة الفرنسيين لنا كمسلمين مغتربين خاصّة، شرارات حقد دفينة، مرسلة أشعّة ضغينة منها تتكلّم بالخرص عن ذلك الكره الشّديد للمسلمين، أو تجاعيد كلّها خوف وملامح رعب، مرسومة على وجوههم وكأنّها تتحدّث نيابة عن الكلمات المحشورة بحلقهم الّتي تندرج تحت مسمّى " المسلمون هم الإرهاب "

*****

هل تسمّوننا إرهاب؟ بالله عليكم ما ذنبنا فيما يحصل؟ إرهاب مموّل من طرف دول ناشطة في الخفاء، دول تدعم مرتزقة مدرّبين على سفك الدّماء ونهب الأرواح بدم خال من كريّات الشّفقة، مرتزقة يجوبون في الأرض كما يريدون، ويعيثون فيها فسادا، ويطلقون على فسادهم نشر الإسلام؟ هذا كلّه من أجل تحقيق غاية واضحة وضوح الشّمس، انفراد أمريكا بحكم العالم، وجعله كالخاتم يدور بين أصابع يدها، متى ما أرادت ذلك، دون أن يهمّها أن يتخبّط العالم في آلام الفتن، ما ظهر منها وما بطن، ومن دماء

الحروب، المهمّ عندها هي الحكم ولا غيره مهمّ، فمن يتوقّع يوما بأن يستيقظ على معاهدة تكتّل بين دول عربيّة وغربيّة ضدّ أمريكا؟

لا أحد يتوقّع ذلك، لكن ذكاء وحنكة أمريكا، جعلها ترسم معالم أيّ توقّع ولو ظهر مستحيل الحدوث، وتحاول طمس أي بصيص أمل، قد يساهم في تشكيل تهديد على كيانها وحكمها، وحتّى إن وصلت بها الدّناءة لتجنيد مرتزقة لا يحبّون شيئا سوى القتل والنّهب، ويسمّون أفعالهم الدّنيئة جهادا في سبيل الله.. قتل.. نهب.. سرقة.. تفجير... انتحار... اغتصاب...

والكثير والكثير من الأفعال المستعصية على الشّياطين في حدّ ذاتها، وتسمّونها دفاعا عن الدّين الإسلامي ونشره؟ أهذا هو الإسلام الّذي ورثتموه عن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم؟

الهوية المعثور عليها لسعيد كواشي.

الفصل التّاسع

الغرب يسعى بكلّ طاقاته لتحويل كلمة 'إرهاب' إلى كلمة 'إسلام' ويحاول بذلك طمس هوية المسلمين وغسل أدمغتهم بعبارة ' أنا مسلم... أنا ضدّ الإرهاب'

كما قام بالتّرويج لهاته العبارة الزّائفة في جميع القنوات العربيّة الّتي يدعمونها هم طبعا، فهاته العبارة ليست من صنع المسلمين أبدا، ولا من صنع أعداء الإرهابيّين الحقيقيّين، ولا هدف العبارة تبرئة المسلمين من تهمة الإرهاب كما قيل، فلو غيّرنا من التّعبير قليلا بإضافة حرف 'مع' فقط ستتّضح ملامح العبارة الحقيقيّة الّتي تقول 'مع أنّني مسلم... أنا ضدّ الإرهاب'، وبهذا توجيه خفي لمليار مسلم بتهمة الإرهاب مبرّئين عبر هذا التّوجيه المسيحيّين واليهود والهندوس وغيرهم من القتلة.

فكم من جريمة ارتكبت بحقّ المسلمين بفلسطين، من قبل الإرهاب الصّهيوني، وكم من عملية إجراميّة تمثّلت في قتل، نهب، اغتصاب، حرق مساجد، تجريف أراض، تشريد أطفال، وترميل نساء، والقائمة طويلة لا تعدّ ولا تحصى، فهل رأينا يوما عبارة 'أنا أمريكيّ.. أنا صهيونيّ.. أنا مسيحيّ.. أنا ضدّ الإرهاب؟ لا.. وألف لا، لم نصادف يوما عبارات كهاته، ترى ما هو السّبب؟

السّبب وهو الهدف الخفيّ من هاته العبارات، وهو ترحيل المسلمين في قطار الإرهاب، وذلك للتّغطية على كامل الأعمال

الإجراميّة المرتكبة من طرف الكيان الصّهيونيّ الغاشم، ضدّ الفلسطينيّين.. أليست هاته أيضا أعمال إرهابية؟

لكن الأسئلة الّتي تطرح نفسها:

ألا يستطيع مليار وثلاثمئة مسلم التّصدّي لمثل هاته الحملات العنصريّة ضدّ الإسلام؟ ألا يستطيع العرب أن يتّحدوا مع بعضهم البعض، فيشكّلون يدا واحدة، ويقفون وقفة عزيز مقتدر، ضدّ كلّ من يحاول المساس بهم؟ هل سبب هاته الحملات العنصريّة خوف أمريكا والغربيّين من الانتشار الواسع الخيالي للإسلام؟ هل تخوّفهم من تفاقم الدّيانة الإسلاميّة يدفعهم لاختراع قصص، أو عبارات عنصريّة، أو رسومات مشوّهة للإسلام؟

فجميع العرب كانوا شاهدين على خروج أمريكا من العراق، بفرحة تضارع بهجة الحقول الظّمآى لهطول الأمطار، انسحبوا من البلاد محتفلين بإتمامهم المهمّة بنجاح بعد قتلهم لأكثر من مليون عراقيّ، بدم بارد خال من الرّحمة والإنسانيّة.

انسحبوا من البلاد مخلّفين مئات القواعد العسكريّة، ومئات القتلة والمرتزقة الّذين يعملون لصالح أمريكا تحت اسم "الشّركات الأمنية" الّتي تدعم الاحتلال المقنّع...

وتركوا وراءهم العراق مثخنا بالجراح، وأشلاء متراميّة في الأودية، وترابا ملطّخا بعفن الدّماء، تاركين حوالي المليون أرملة، وآلاف

الأطفال اليتامى، فبأيّ حقّ يتحدّث هؤلاء القتلة عن الإسلام كمصدر إرهاب؟

ولا يغفل الجميع أيضا عن مصدر الشّرارة الّتي ولّدت دويلة إرهابيّة، نسبت نفسها للإسلام تدعى داعش، ولا يخفى أيضا عن المموّلين النّشطاء في الخفاء، ولا الدّول الحاقدة على المسلمين الّتي تستغلّ أسنح الفرص لتلطيخ سمعة المسلمين، وتشويه تاريخهم بالإرهاب، لذا فالعبارة الّتي كان من المفروض التّرويج لها في الشّاشات العربيّة هي عبارة "أنا مسلم.. أنا ضحيّة الإرهاب.."

*****

ستّة أشهر مرّت بلمح البصر، وكأنّها ستّ ساعات، منذ هجمات يناير الّتي استهدفت مقرّ الصّحيفة النّكراء شارلي ايبدو، كأكثر العمليات إراقة للدّماء منذ تفجير قطار فيتري لوفرانسوا سنة 1961 من قبل منظّمة الجيش السّرّي OAS.

وكما كان متوقّعا فبعد أيّام من الهجمات، أصدر مسؤول عن تنظيم القاعدة في جزيرة العرب فيديو يكشف الغطاء وينزع السّتار عن متبنّي الهجمات، متوعّدا فرنسا بهجمات جديدة أشدّ من هاته، مستعملا في حديثه أسلوب التّهديد والتّرهيب للفرنسيين عامة، وللرّئيس الفرنسيّ فرونسوا هولاند خاصّة.

حيث أنّ الرّئيس الفرنسي بعد هذا البيان، شدّد على الجيش ورجال الأمن والشّرطة بضرورة توخّي الحذر، والاستعداد التّام لأيّ عملية

إرهابيّة قد تحوم حول البلاد، مرّت الأيّام وعلى إثرها بدأت فرنسا تستعيد عافيتها، وعاد الأمن للبلاد اليوم تلو الثّاني...

صلّيت صلاة العشاء بالمسجد الكبير لباريس كما اعتدت ذلك، ثمّ خرجت متوجّها للمنزل أين تنتظرني هنالك فاطمة وأمّي خديجة للعشاء، استوقفني في الطّريق رجل غريب علي ولم أره من قبل، ملامحه العربيّة تنبثق من وجهه، ناداني بلهجة عربيّة قائلا:

- عبد الهادي.. عبد الهادي...
- نعم يا أخي!
- السّلام عليكم أخي، كيف حالك؟
- وعليكم السّلام ورحمة الله تعالى وبركاته.. هل تعرفني؟

بعد أن ألقى التّحية عليّ قال ممشطا لحيته المتناثرة من شفاهه بأصابعه:

- الأستاذ الجامعي عبد الهادي. أكيد أعرفك.

تجعّدت جبهتي، وتناثر صدى الأفكار بعقلي، فرحت أتذكّر ذلك الرّجل الّذي التقيته منذ سنة بمحطّة انتظار الحافلات، حاولت ربط ملامحه بهذا الرّجل فعصتني أفكاري وتضعضع دماغي، وتبدّدت أمام وجهه مثلما تتراكض أوراق الخريف أمام الرّياح، شاعرا فجأة بأخيلة هواجس متمايلة حول قلبي، سرعان ما توقّف كلّ شيء فجأة، حينما هبّت ريح فكرة متمثّلة بأنّ هذا الرّجل مجرّد رجل

لاجئ ويحتاج لمعونة مادية، لامست جيبي الأيمن بيدي ثمّ حدّقت فيه قليلا، لأسمعه يقول:

- عبد الهادي.. أخي.. أين شردت ؟
- لا.. لا، ما الّذي قلته لي؟
- لقد أخبرتك بأنّني أحتاج خدمة بسيطة منك، ستستفيد من هاته المهمّة في دنياك وتثاب عنها عند ربّك إن شاء الله..

صعد حاجبي واتّسعت عيناي دهشة ثمّ قلت:

- خدمة؟ وما نوع هاته الخدمة الّتي تريدها منّي؟
- سأخبرك.. لكن هل تسمح لي باستضافتك على كأس شاي بمقهى شكسبير؟

جرح الفضول فؤادي وراود أحشائي، فلم يكن منّي إلّا وأن هززت رأسي قائلا:

- بكلّ سرور أخي... حسنا.

أدخل يده في جيبه وأخرج جهاز تحكّم عن بعد، ضغط عليه فأطلقت تلك السّيارة المقابلة من نوع بيجو 207 رنّة خفيفة تعلن فتحها للأبواب، فأنارت الدّهشة ملامح وجهي المصفرّ وشعرت بمدى غباء الفكرة الّتي أوحت لي بأنّه إنسان يحتاج لمعونة مادية، على ما يبدو الخدمة لا علاقة لها بالمعونة، وبعد أن قال لي بأنّك ستستفيد

من المهمّة فإنّني أنا من سأكسب من وراء هاته الخدمة، ترى ما هاته الخدمة الّتي يريدها منّي؟

أفكار كثيرة تساقطت على عقلي كالأمطار، واختلط الحابل بالنّابل، فلم يكن منّي إلّا وأن هززت رأسي يمينا ويسارا، مزيحا عن عقلي كلّ الأفكار والتّساؤلات، وتوجّهت وراء الرّجل لمقعد السّيارة الأمامي، بعد أن دعاني للجلوس عليه.

جلسنا بمقهى شكسبير، وتبدّد فضولي هنالك، بعد أن علمت منه بأنّه يدعى أبا القاسم الأمين من سوريا، ومقيم بفرنسا منذ حوالي خمس سنين، متزوّج ولديه طفلتان، ويعمل في شركة لنقل البضائع والمواد الغذائيّة، وبينما نحن نتبادل أطراف الحديث حتّى قاطع حديثنا قائلا:

- هل كنت شاهدا على الهجوم المنظّم على مقرّ صحيفة شارلي ايبدو؟
- نعم بالطّبع ومن لم يشهد تلك الهجمات؟

مشط لحيته بأصابع يده وبنبرة هادئة أكمل حديثه:

- وما رأيك في ذلك الهجوم؟ تستحقّه فرنسا أليس كذلك؟
- نسبيّا معك حقّ.. فلا يخفى علينا بأنّ الصّحيفة النّكراء، قامت بجرم خسيس ضدّ المسلمين، ومنذ سنوات وهي تستغلّ كلّ الفرص السّانحة لكشف الغطاء عن حقدهم

الدّفين، فرغم أنّ فرنسا تستحقّ ذلك الهجوم، إلّا أنّ الهجوم كان مشينا ومشوّها لأخلاق المسلمين، ومبادئهم الّتي تدعو للسّلام والعفو عند المقدرة، والابتعاد عن مبدأ الانتقام...

تغيّرت النّبرة الهادئة من كلامه، وبنبرة مشبعة بالغضب خرج من بين شفاهه هذا السّؤال:

- الدّولة الإسلاميّة هي من تبنّت ذلك الهجوم أتدري ذلك؟
- نعم أعلم ذلك... ولكن...

قاطع كلامي ونغمة الغضب والتّعصّب تمازج صوته:

- أخي أنا منتم لتنظيم الدّولة الإسلاميّة، وللأسف فقدنا أربعة من رجالنا في تلك العملية، هم في الجنّة أكيد، فالشّهيد يدخل الجنّة دون حساب، الله أكبر.. الله أكبر....

توجّست في نفسي خيفة، وانتشرت سحابة التّوتّر بجبيني شيئا فشيئا، وامتقع وجهي واصفرّ لونه فأناره الخوف، كما تنير أشعّة الفجر خطوط الأفق، أنا الآن جالس وجها لوجه مع إرهابيّ متطرّف، يحمل بين دفّتي أفكاره، أفكارا خاطئة ومغلوطة عن الدّين الإسلاميّ، شددت على ركبتيّ بأصابع يدي المرتجفة لأدسّ خوفي بينها، رسمت ملامح هادئة وابتسامة مزيّفة ثمّ قلت:

- وما هي هاته الخدمة الّتي تريدها منّي أخي؟

ابتسم ابتسامة خفيفة شبيهة بملامس الأفعى ثمّ قال:

- أتدري يا أخ عبد الهادي بأنّك رجل ذكيّ، وهذا ما جعلنا نفكّر برجل مثلك، وندعوك للعمل معنا.. صدّقني ستكسب الكثير وراء ذكائك هذا..

سكت بضع ثوان، حدّق في يده قليلا ثمّ أردف يقول:

- حسنا.. بدون إطالة، رجالنا الأقوياء الّذين ساهموا في دفاعهم عن الله ورسوله، واسترجاع كرامة المسلمين، قد سلبت أرواحهم بدم نجس بكريّات الكفر، نريد الانتقام لأرواحهم والتّلذّذ بسلب أرواح الكفرة النّجسين، إضافة إلى أنّ بلاد الكفر هاته تستفزّنا دائما بنشر الرّذيلة علنا، ونحن كمسلمين مؤمنين بالله ورسوله، ونعلم أحكام ديننا الّتي توجّب على كلّ مؤمن أن يقف وقفة رجل شديد، ضدّ أيّ واحد يحاول المساس بالدّين الإسلاميّ، فهذا منكر عظيم ومن رأى منكرا فليّغيره بيده، فإن رضى المؤمن بالمنكر فهو مشارك في الإثم، لذلك وجب علينا أن نتوكّل على الله ونقاتل هؤلاء الكفّار ونجاهد في سبيل الله، والنّصر من عند الله عزّ وجلّ.. أليس كذلك أخي؟

وهنت قواي فجأة وتسمّرت بالمقعد دون حراك، بالكاد أشعر بقدمي، اضطربت أحشائي وتلوّت وكأنّها تستفرغ خوفي عبر مركزي

العصبيّ، لم أنبس ببنت شفة، لكي لا أكشف خوفي وارتعابي الّذي سيطر على شفتي، فأومأت له برأسي صعودا ونزولا ليكمل حديثه:

- أخي في الله عبد الهادي... باختصار أنت شابّ تقيّ ومسلم، وتعرف دينك حقّ المعرفة، فنحن لو لم نرك مواظبا على صلاتك جماعة يوميا، لما اخترناك من بين الآلاف، وإن كنّا مجرّد سبب فالله هو من فضّلك واختارك للدّفاع عنه وعن رسوله، فأنت تعلم بأنّ الجهاد واجب على كلّ مؤمن، لذلك نحن بصدد التّحضير لهجومات على أماكن متفرّقة من باريس، وسيقوم بهاته الهجمات بعض من رجالنا الأشدّاء الّذين وصلوا بإيمانهم القويّ لحبّ الاستشهاد في سبيل الله تعالى... أمّا أنت فنحن نريد منك مساعدتنا بخدمة بسيطة متمثّلة في صنع المتفجّرات الّتي سنستعملها في الأحزمة النّاسفة، وبما أنّك خبير في مجال الكيمياء فأكيد ستكون عالما ولو بالقليل عن كيفية صنع المتفجّرات الكيمائيّة كمتفجّرات TATP....

وضع أبو القاسم الأمين يده على كتفي الأيمن وبصوت يمازجه نغمات رجاء واستعطاف قال:

- وتأكّد يا أخي في الله بأنّ الله سيجازيك في الآخرة إن شاء الله.

تجعّدت جبهتي، واعتصرت حبّات العرق الّتي تجمّعت حولها، ازدردت ريقي في ارتباك شديد، وسالت على شفتيّ ابتسامة مزيّفة، وشعرت فجأة بأنّني إنسان بائس، لا أحد يسمع صدى صوتي، سوى الخوف الّذي تربّع في مسامعي، ثمّ قلت بصوت متعلثم:

- ولكنّني لا أملك أدنى فكرة عن صنع المتفجّرات ....
- لا تقلق يا أخي. أفهمك جيّدا وأبشّرك بأنّك ستتحصّل على مكافأة مالية تقدّر بعشرين ألف يورو... ستتحصّل على النّصف الأوّل قبل العمليّة والنّصف المتبقّي بعد إتمام العملية بنجاح إن شاء الله...

رسم ابتسامة خبيثة على شفته ثمّ أكمل حديثه بنبرة هادئة:

- أرأيت يا أخي، ما أجمل الجهاد في سبيل الله، دين ودنيا وآخرة، ما شاء الله...

أدخل أبو القاسم يده بجيب سرواله ثمّ استطرد:

- تفضّل هاتفي. دوّن لي رقمك هنا، سأتّصل بك بعد يوم، لكي تكون العشرة آلاف يورو في حسابك...

عتمت غيوم الخوف بصدري وشعرت بأنّ سلطتي الكاذبة قد تضعضت، أحدّق في أبي القاسم ويحدّق في، وتتزايد خفقات قلبي مع كلّ ثانية. وعلى حين غرّة تراءى لي في بصري أمّي وفاطمة. هما بالمنزل لوحدهما دون حماية، اختلطت عليّ الهواجس من كلّ جهة

بدماغي، دعوت في سرّي بأن يكونا بخير ولا يمسّهما أيّ مكروه، ضغطت على ركبتي، ثمّ شمّرت عن قوّتي، ووقفت منتصبا، متظاهرا باللاّمبالاة، وبلهجة مملوءة بالعزم والإرادة قلت :

- عفوا يا أخي، لكنّني أخبرتك منذ قليل بأنّه ليس لديّ أيّ فكرة عن صنع المتفجّرات وبالتّالي لا أستطيع مساعدتكم...

دفعت المقعد بقدمي اليمنى، وحملت جمسي واضعا أوّل خطوة بعيدا عن الطّاولة، فلم يكن من أبي القاسم سوى أن وضع يده على كتفي الأيمن، وبصوت تتموّج في مقاطعه معاني الرّجاء واليأس قال:

- لحظة يا عبد الهادي... سنضاعف لك المكافأة لو أردت.

تطايرت سهام الغضب من عيني وتلهّبت أنفسي، نظرت إليه نظرة التّيار الغاضب على الأعماق ثمّ أردفت أقول:

- لا يا أخي، بارك الله فيكم، قلت لك بأنّني لا أستطيع المساعدة، والآن السّلام عليكم.

سالت على شفتي أبي القاسم ابتسامة غاضبة، جعلت لحيته تتراقص حنقا وقال:

- لكنّني لن أحذّرك، بأنّ أي خبر قد يصل للأمن سأعرف بأنّه أنت. أعذر من أنذر...

مرّرت حدقة عيني يمينا ويسارا دون أن أنبس ببنت شفة، ورحت أضع خطوات أسرع من البرق بعيدا عنه، سرت والضّباب المسيطر على عيني يحجب عنّي الرّؤية كما تحجب النّجوم أشعّة القمر، أخرجت هاتفي بسرعة من جيبي، ومن شدّة الارتباك سقط الهاتف أرضا، كجنديّ في حرب ضدّ الصّمود، ارتطم الهاتف بقوّة فتفكّكت عنه بطّاريته، سقطت أرضا أحاول إعادة تركيب البطّارية من جديد، أدخلت البطّارية ثمّ ضغطت على زرّ التّشغيل، انتظرت بضع ثوان قبل أن تظهر الشّاشة لي، تخيّلت نفسي كأنّني عصفور كسرت جناحاه بعد أن نال حرّيته بعيدا عن قفصه، دوّنت رقم هاتف فاطمة وانتظرت الرّنّات المتواصلة، الرّنّات تتواصل دون أي استجابة، وبعد بضع ثوان تحوّلت الرّنات إلى الصّوت المسجل الذي يقول:

- إنّ الرّقم الّذي طلبتموه مغلق أو خارج نطاق التّغطية.

توجّست في نفسي خيفة، وهاجت أحشائي كما يهيج البحر على شواطئ الرّمال، فرحت أتّصل بأمّي، فتح الخطّ بعد بضع رنّات، ليأتيني صوتها ويسطع صدري كما يسطع الرّبيع ورود الخريف الذّابلة:

- مرحبا بنيّ...

تنهّدت، ثمّ بصوت مرتجف خرجت هاته الكلمات المتقطّعة مع أنفاسي:

- حمدا لله.. أمّي هل أنتم بخير؟ لقد خفت كثيرا عليكم... لماذا لم تردّ فاطمة على هاتفها؟
- بنيّ أنا في غرفة المطالعة، تركتها في المطبخ، هي تحضّر العشاء، سأنزل الآن لرؤيتها بنيّ...
- حسنا... حسنا.. أمّي خمس دقائق وأكون هناك، مهما حصل لا تفتحي الباب..
- ماذا هنالك بنيّ؟ لقد أفزعتني، ما به صوتك مرتعش هكذا؟
- أمّي الوقت لا يكفي للحديث.. سأحكي لك ريثما أصل المنزل.
- حسنا بنيّ.. وفّقك الله مع السّلامة..

صارت كلّ هواجسي متلاشيّة وكأنّها لم تكن.. تنهّدت طاردا خوفي، ثمّ رحت أحدّق في أي سيارة أجرة، لم تلبث بضع ثوان حتّى اقتربت منّي واحدة فاستوقفتها متّجها للمنزل.

بعد بضع دقائق وصلت للمنزل، خففت من سرعة خطواتي، وكأنّ الموت يقترب منّي، وأنا فارّ منه كرجل جبان، وضعت المفتاح بمكانه المخصّص وفتحت الباب، وقلبي لم يكفّ عن الاستغاثة بنبضاته المتسارعة، ما إن فتح الباب، حتّى طرق مسامعي الهدوء المخيّم على أرجاء المنزل، هدوء مريب، مخيف، لدرجة أنّني سمعت صدى تنفّسي الفزع تطلّعت للمنزل قليلا هنا وهناك ثمّ صرخت :

- فاطمة.. فاطمة.. أمّي... أمّي... أين أنتما؟

لم تستجيبا لندائي، وكأنّ غشاء من الصّمم قد أطبق على مسامعهما، شمّرت عن ساعدي ورحت أبحث مفزوعا في الغرفة تلو الأخرى، صعدت للطّابق العلويّ، ثمّ اتّجهت لغرفتي.. فلم أجد أحدا، حملت أقدامي المرتجفة إلى غرفة المطالعة، وأنا أصرخ بصوت مفزوع:

- أين أنتما...؟ فاطمة.. أمّي.. بالله عليكم هل هاته مزحة؟

كان باب غرفة المكتبة مغلقا.. وضعت يدي المرتجفة على مقبض الباب ثمّ جذبته نحوي بسرعة شديدة، وإذا بي أفاجأ بالفوضى قد عمّت في كلّ بقعة في المكان، كتب مرمية وبضع قطرات دم متناثرة على بلاط الغرفة، ما إن أزحت عيني يمينا حتّى لمحت جثّة ملوّنة بدم أحمر قاتم، قبضت على صدري في رعب ثمّ صرخت جزعا:

- أمّي.. أمّي..

ارتميت على جثّة أمّي كأسد جائع، وانغمست بحضنها المليء بكريّات الدّم الحمراء، ورحت أتحدّث بصوت حزين مرتعش:

أمّي بالله عليك.. انهضي.. أمّي...

ما إن شعرت أمّي بوجودي، حتّى تفتّحت عيناها المغمضتان اللّتان تنبعث منهما نظرات مؤلمة، تتكلّم بالسّكينة عن انسحاق قلبها وفقدانها للأمل، همست بصوت جارح بحلاوته:

- عبد الهادي.. حبيبي.. بنيّ عبد الهادي.

وما إن تحدّثت حتّى استدبّ في صدري سرور مؤقّت، ورحت أجلس على ركبتيّ وأضع رأسها بين فخذيّ، سالت على شفتي ابتسامة محزنة ثمّ قلت والغصص تقطع صوتي :

- نعم يا حبيبتي، أنا ابنك عبد الهادي، ما الّذي حصل يا أمّي؟
- فاطمة.. فاطمة.. أين هي ابنتي فاطمة؟

انعقد لساني لوعة، ولم أدر ما الّذي سأقوله لها، وبدأت عبراتي في الخروج وكأنّها كرهت وجودها في سجن التّظاهر بالتّفاؤل، لامست شعرها بأصابع يدي ثمّ قلت:

- لا تقلقي يا أمّي.. ستكون بخير إن شاء الله، تمالكي نفسك لبضع دقائق وسأتّصل بالإسعاف، تمالكي نفسك عزيزتي...

وما إن بدأت بجذب ركبتي من على رأسها، لكي أتيح لنفسي راحة أكبر، لجذب الهاتف النّقال من جيبي، حتّى حرّكت أمّي أصبعها الهزيل المرتجف وقبضت على يدي ثمّ حرّكت شفتها المرتعشة بصعوبة:

- لا.. توقّف يا بنيّ.. ابق معي رجاء، لا تفلت يدي..

*****

انخلع عن روحي يا بنيّ ...

قد لمحت روحي في السّماء فلا أستطيع أن أحوّلها نحوك

دعني أطير مرفرفة، فقد كسرت بأجنحتي قضبان قفصك

اتركني رجاء ...

ها قد طابت الرّياح وتبدّد الضّباب عن زبد بحارك،

قد لمحت والدك هناك فلا تكبّلني بأحبالك،

دعني يا بنيّ ...

عيناي تلمحان ظلاما دامسا بالقرب من خيوط شعاعك،

قبّل صدري بقلبك، قبّلني قبلة رجاء وأمل بشفاهك،

رجاء اترك روحي تفيض ...

ولا تسكب قطرة من مرارة الحزن على صدري بأجفانك،

ولا تذرف دموع القهر على خدّي لأنّك تحرقه بعبراتك،

انخلع عن روحي يا بنيّ ...

ولا ترسم بزفرات الأسى سطرا على جبهتي بشفاهك،

أحببتك حياة وسأظلّ بعد وفاتي، كن متمسّكا بدينك،

أدّ فروضك وسننك ولا تبخل عليّ بدعواتك،

أمّا ابنتي فاطمة فهي عندهم، بنيّ استرجع زوجتك،

وفّقك الله، سنلتقي بإذن الله في جنّة خالقي وخالقك.

*****

قطراتُ دمٍ متناثرة في بلاط الغرفة، روح بريئة أزهقت من مرتزقة عاشقين لقتل وسلب الأرواح، جسد ذو رأس متدلٍّ مداعب ركبتي اليسرى، روح تصرخ في صمت مستنجدة، راجية ذاك الشّبح الأسود حتّى يخلّصها من ألمها مقدّما حرّيتها على طبق من تعاسة.

شبح خبيث يترقّب ضعف ضحاياه، يستطعم أجسادهم، مستنزفا قطرات أرواحهم بدمه البارد الخالي من كريّات الرّحمة، قواه تكمن في وهن ضحاياه واستسلامهم للموت.

رفعت أمّي أصبعها الأيمن بصعوبة شديدة، وكأنّها تحاول أن تدفع عبره الكلمات المحشورة بحلقها، خرجت هاته الكلمات المتقطّعة بحشرجة صوت مع أنفاسها الأخيرة:

- بنيّ، ابحث عن زوجتك، وعودا للوطن، لا تبقيا هنا أبدا، ادفنّي بجانب والدك بنيّ أنا أرى والدك الآن، انظر هو وراءك انظر إليه، هو يبتسم لي...

وبعد دقائق كانت كالسّنين لها، ها هي تضعف لملك الموت وتخضع لطلباته، فلم يكن منها إلاّ وأن استكانت لضعفها، ونطقت همسا بالشّهادتين، في خضمّ ارتجاف شفتيها، ثمّ أغمضت عينيها في هدوء، بعد معركتها ضدّ الصّمود، ليرتخي جسمها فجأة، وينفلت رأسها المتثاقل من على ركبتي اليسرى، ويلتوي عنقها كما تلتوي الأفعى حول نفسها، أمسكت رأسها ووضعته بهدوء على بلاط الغرفة، وأخذت أتقفّى نبضاتها على صدرها وأتحسّس خفقاتها الشّبه معدومة، انعدمت الحياة تماما في قفصها الصّدري لدرجة أنّني لم أتمكّن من سماع صدى تنفّسها، دون أيّ تأخير، رحت أضغط على جانب صدرها الأيسر بكلّ قوّة بكلتا يديّ صارخا صراخا اهتزّت لحزنه الجدران الأربعة :

- أمّي... أمّي

استسلام أمّي لألمها، هو ما خلق الفرصة المناسبة لملك الموت الّذي يترقّب ضعفها على أحرّ من الجمر، فلم يكن منه سوى أن أقحم يده في جوف صدر أمّي، مقتلعا قلبها بيد خالية من الشّفقة... مستطعما روحها بلسانه الأسود، شاعرا بالنّشوة مع كلّ دقيقة، يمتصّ فيها دماءها المتخثّرة على صدرها، لتنتهي في الأخير معركته ضدّها بفوزه، بعد أن فاضت روحها إلى السّماء... فبأيّ ذنب قتلت؟

وبعد أن هدأت نفسي ووهنت قواي، ولم أستطع فعل أيّ شيء، وتغلّب اليأس عليّ، دنوت من جسد أمّي واحتضنته بعنفوان،

وبصوت أمرّ من عويل الموت، خرجت هاته الكلمات المتقطّعة بعبرات اليأس والحزن من شفتي:

- بالله عليك يا أمّي، يا حبيبتي، ليس لديّ غيرك في هاته الدّنيا، أنت الوحيدة في هذا الكون الّتي تشعرني بالحنان، وأنا متنعّم بين أحضانها... أنت الوحيدة الّتي تحسّسني بالسّرور حين رؤية بسمتها... أنت الوحيدة الّتي تؤنسني حينما تلامس يدها يدي... أنت الوحيدة الّتي تدعو لي في كلّ مرّة إن أنا خرجت من باب المنزل... أنت الوحيدة الّتي لا أعرف طعم الحزن وأنا بجانبها، بالله عليك لقد تركني أبي، فهل ستتركينني أنت كذلك؟ حبيبتي بالله عليك رفقا بعبد أنهكته تأوهات القدر، كيف سأتحمّل فراقك؟ لا تتركيني رجاء أنت امرأة قويّة، لماذا استسلمت للموت بهته السّهولة...؟ أمّي.. أمّي.. بالله عليك اسمعيني...

تسلّلت أشباح اليأس إلى سريرتي واتّخذت لنفسها مقرّا بجناني، لامست شعلات تنهيداتي سقف الغرفة، قرّبت وجه أمّي من صدري وصرخت مستغيثا، صراخ يائس شعر بأنّه لا أحد يسمعه سوى ملك الموت المخيف:

- يا الله...

فيديو يؤكد تبني داعش للهجوم بقيادة أيمن الظواهري.

الفصل العاشر

تمضي بنا الحياة أحيانا بلحظات فرح، لكن لا يدوم في الدّنيا أيّ حال، دوام الحال من المحال، فبين هاته الفترات الجميلة، تمرّ أيضا لحظات من الألم والحزن والفراق، نتغلّب على بعضها بينما تسيطر أحاسيس الحزن والحنين على قلوبنا على غيرها.

قد تهبنا أحيانا الحياة أناسا نستشعر معهم جمال الدّنيا والأمل في الحياة، نتعلّق بهم كثيرا لدرجة أنّهم يصبحون هواءنا الّذي نتنفّسه، نتّخذهم قدوة لنا، ونستمدّ منهم الأمل في أكثر المواقف يأسا وإحباطا، ولا نتخيّل للحظة بأنّنا نستطيع العيش دونهم.

لكنّ الإحساس الّذي وجب أن يثق به أيّ شخص، وهو أنّه ستأتي لحظة ضدّ القدر وإن كانت قدرا في حدّ ذاتها، لحظة تسمّى لحظة الفراق، وما يؤكّد لنا حتمية مجيء هذا اليوم، وهو تركيبة الحياة المبنية أساسا على الفراق فلم تبن الحياة على اللّقاء والاجتماع وحسب، بل جعل الفراق أيضا أساسا بها.

- فاطمة، أنا متّجه للمسجد.
- هل ننتظر قدومك على العشاء؟
- نعم، جهّزي العشاء وانتظريني.
- حاضر.. لا تنسنا من دعائك.
- إن شاء الله..

خرج عبد الهادي من الغرفة، ونزل إلى باب الخروج، متّجها لصلاة العشاء، بينما توجّهت لغرفة المكتبة أين كانت أمّي خديجة، وقلت بصوت مرح:

- أمّي خديجة، ما الّذي تقرئينه؟
- أنا أقلّب فقط هذا الكتاب، تعرفين بأنّني لا أستطيع القراءة الكاملة.
- نساء حول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، رائع عنوان هذا الكتاب..
- نعم.. شدّني هذا العنوان كثيرا..
- حسنا يا أمّي خديجة.. سأنزل أنا إلى المطبخ لأجهّز العشاء، وسأناديك فور الانتهاء بالمناسبة حانت صلاة العشاء لكي لا تنسينها..
- نعم..لقد أخبرني عبد الهادي حينما كان متّجها للمسجد، سأكتفي بالصّلاة هنا وأكمل تقليب صفحات هذا الكتاب، هل تحتاجين مساعدة؟
- لا عليك يا أمّي، سأصلّي العشاء وأنزل للمطبخ، قراءة ممتعة..

صلّيت بغرفتي صلاة العشاء، ثمّ نزلت للطّابق السّفليّ إلى المطبخ، ورحت أحضّر عشاء يسدّ جوعنا في غيابات اللّيل الحالك، وبينما أنا منهمكة في الطّبخ حتّى سمعت صوت دقّ باب المنزل،

اتّسعت عيناي دهشة، واندفعت نغمة دهشة من حلقي، تسمّرت في مكاني لبضع ثوان، ورحت أعيد الصّوت على مسامعي، لم تكن مجرّد أوهام، فالطّرق يزداد صداه بمسامعي، تنازلت على عقلي الأسئلة من كلّ حدب، هل هو عبد الهادي؟

ترى ما الّذي جاء به بهاته السّرعة؟ هل ذهب متأخّرا؟ أو هل نسي مفتاحه، أو هاتفه يا ترى؟ ربّما بعث مندوب تقديم بيتزا كنوع من المفاجأة، كلّها أسئلة تناثرت على مخيّلتي من كلّ ناحية، فلم يكن منّي إلّا وأن وضعت خطوات عازمة سريعة إلى باب المنزل..

- من بالباب؟ ... من الطارق؟

لم يردّ عليّ أي أحد، فوضعت يدي على المقبض وأدرته، سحبت الباب إلى جسدي لأفاجأ برجلين، ضخمي البنية، ملثّمي الملامح، انعقد لساني خوفا وقلت دون شعور بصوت مرتجف:

- من أنتما.. وما الّذي تريدانه؟

لم ينبس أحدهما بأيّ كلمة، وكأنّ أشباح الصّمت قد عصرت حلقهما، حدّقا فيّ لبضع ثوان بنظراتهما المخيفة ثمّ اقترب أحدهما نحوي كنمر واثب، تراجعت قليلا للوراء ثمّ رحت أدفع الباب بكلّ حدّة، شعرت بوجود قوّة صدّ تتدافع مع قوّتي، ضاعفت من قوّتي ومتّنت رابطة جأشي، ورحت أدفع الباب بقوّة تضاهي قوّة دفع الرّياح للصّخور الثّقيلة، لكن قوّتي لم تكن أشدّ من قوّة الرّجلين، خانتني قوّتي وتغلّب ضعفي على جسدي، لأندفع بعيدا عن الباب،

أين تعثّرت ببساط فناء المنزل، وسقطتّ أرضا كجنديّ حارب، وحارب، لكنّ قواه خانته في الأخير، فلم يجد شيئا لفعله، سوى الاستكانة لضعفه والاستسلام للموت، اقتحم الرّجلان المنزل واقترب أحدهما منّي، من شدّة الفزع لم أستطع النّهوض فحاولت التّراجع زحفا على ظهري، بعد أن أدركت أخيلة الضّعف تتبختر حول جثماني، وبينما أنا منهمكة في مصارعة ضعفي، حتّى أطبق عليّ أحدهما بكلتا يديه الشّديدتين، وضغط على كتفي كما تضغط الأفعى على فريستها قبل افتراسها، ثمّ اقترب زميله منه ماسكا شريطا لاصقا بين يديه، اقترب لشفتي وأطبق الشّريط عليها، كما يطبق الجليد سفوح الجبال، حجب الشّريط صوتي، وكتم حشرجتي، ومنعني من إصدار أيّ صوت، حاولت الصّراخ والصّراخ، لكن دون جدوى، خرج ذلك الصّراخ كأنين الثّكلى الّتي لا يسمع صدى أنينها، سوى جدران غرفتها، وعلى وهلة تململ في مسامعي صدى كلمات عبد الهادي الّتي تقول :

- الله في صفّك، وحينما يكون الله في صفّك جيوش العالم لن تقدر على هزيمتك، لن تقدر على هزيمتك، لن تقدر على هزيمتك..

أوقفني الرّجل الّذي أمسكني لبضع ثوان، بيده المشبعة بتجاعيد القسوة وعروق الشّدة، ثمّ طوّق جسدي بكلتا يديه، كما يطوّق الثّعبان فريسته، حاولت التّخبّط والتّخبّط، لكنّني شعرت بأنّني بين قبضة أفعى مجلجلة، ولا يسعني فعل أيّ شيء سوى

الاستسلام لقدري، والرّضوخ لشبه الموت البطيء، صرخت وصرخت بصمت، ومع كلّ صرخة صامتة جسدي يذبل وينهش من أحبالي الصّوتية ثانية تلو أختها، فلا شيء في هاته الحياة أشدّ من الموت البطيء الّذي لا يتيح لك أيّ فرصة للمقاومة، ولا يقدّم لك الموت على طبق من سهولة، يعذّبك مع كلّ ثانية ويجعلك تعيشها رغما عنك، فيحرق عظامك عظمة، عظمة، وينهش جسدك عضوا، عضوا، ويستنزف دماءك قطرة، قطرة، كمصّاص دماء، ثمّ يجرّك من قدمك كرهينة، من معتقل الموت البطيء إلى سجن الموت الأبديّ.

بضع دقائق من حالة الرّعب الّتي عمّت المكان، رنّ هاتف الرّجل الّذي يقابلني، فابتعد قليلا ثمّ بدأ في الحديث بصوت خافت أشبه بالهمس، وبعد أن أغلق الخطّ، عاد وفي عينيه شرارة غضب مخيفة، ثم أردف يقول لزميله:

- هيّا بنا.. سنأخذ الفتاة معنا، بسرعة سأذهب وأفتح باب السّيارة.. كن حذرا ..

وبعد أن اتّجه الرّجل لباب المنزل، وابتعد عن ناظري، انطلق فجأة صوت نغمة هاتفي الموضوع بالمطبخ، ذعرت واهتزّت شعيرات جسدي كاهتزاز كهربائيّ، تمنّيت من الزّمن أن يتوقّف، عاد الرّجل أدراجه، وراح يتتبّع مصدر الرّنة، لم يطل الأمر كثيرا فقد تمكّن من إيجاد مكان الهاتف لمدّة لم تتجاوز الدّقيقة، عاد واقترب من زميله ثمّ قال:

- سنأخذ الهاتف معنا..

تنهّدت خفية وجمعت تنهّداتي بصدري، تمنّيت بأن يسرعا بالخروج من المنزل، دون ارتكاب أيّ جريمة، ودون معرفة وجود شخص ثان في المنزل، سرعان ما تحوّلت أمنيتي من تحقيق أمنية لتحقيق عكسيّ، أمّي خديجة تنزل درجا... درجا وخطواتها ترفع شيئا فشيئا من ارتياعي، تحذّرت والتفتّ للدّرج أترقّب رؤيتها، أصرخ صراخا أبكمَ، مميتا داخل أنفاسي، وبعد بضع ثوان، استطعت رؤيتها بعد أن زادت من شدّة توتّري بصوتها المرتفع:

- حبيبتي... هل أنهيت تحضير العشاء؟

أردتّ الصّراخ بكلّ أحبالي الصّوتية، لكنّني لم أتمكّن سوى من إصدار أنين متعب، لنفس قريحة تذوب بين أضلاعي كما يذوب الثّلج في قدوم فصل الصّيف، اتّجه الرّجل نحوها بسرعة أسرع من البرق، بينما بقي الآخر محتضنا جسدي الهزيل، بين ضلوعه القاسيّة كما تحتضن أنياب الأسد ضحيّتها، بعد أن فرّت أمّي هاربة وتبعها الرّجل، عمّ صمت مريب، لم أسمع شيئا، بعد دقائق من الهدوء المميت، تململ في أذني صوت إطلاق نار، تكدّست العبرات بمقلة عيني، تضعضع هدوئي، فرحت أتخبّط في مكاني ،علّي أتمكّن من الإفلات من قبضة الرّجل الشّديدة الّتي أرهقت أضلعي، كلّما تزايدت قوّة إفلاتي، تضاعفت قوّة صدّه، وبينما أنا كذلك حتّى نزل

الرّجل بخطوات سريعة غير متوازنة، اقترب من زميله ثمّ قال بصوت يقشعرّ جزعا :

- هيّا بسرعة، اجلب الفتاة، فلنخرج الآن ..
- ما الّذي ارتكبته بالله عليك؟
- لا أعلم حقيقة ماذا فعلت، أعتقد أنّها ماتت والله أعلم.
- لماذا فعلت ذلك؟ ... تبّا لك، أتريد أن تدخلنا السّجن؟
- لقد أرادت التّحدّث في الهاتف فمنعتها، فحاولت اختباري، وبينما أنا أهدّدها بمسدّسي لترك الهاتف، ضغطت الزّناد دون أي شعور منّي.
- تبّا... والآن ماذا سنفعل بجثّتها...؟
- سنتركها هنا...
- حسنا... حسنا، هيّا بسرعة اجلب لي الحقنة من درج السّيارة.

ابتعد الرّجل عن ناظري لبضع ثوان، ثمّ عاد وفي يده الحقنة ثمّ أردف يقول:

- هيّا أمسكها جيّدا...

اشتدّت قبضة الرّجل على جسدي، متيحا الفرصة لزميله للاقتراب من رقبتي، غرز الحقنة في عروقي، فلسعتني كما تلسع العقرب عدوّها، بعد بضع ثوان شعرت بمفعولها يسري في عروقي، بدأت

أطرافي تتنمّل شيئا فشيئا، وبدأ النّعاس يكحّل عيني، أشعر بالدّوار، دوّار شديد، بدأت جفوني في الانغلاق رويدا رويدا، فلم أشعر بنفسي إلّا وأنا أرتخي بجسدي على الرّجل الّذي لم يرض إفلاتي بقبضة الأسد تلك...

*****

أشعر بتثاقل في جفوني وكأنّ طبقة من الأشباح توضّعت بها، حاولت أن أفتح عيني، لكنّني لم أتمكّن من رؤية شيء في بادئ الأمر، وكأنّ طبقة من السّواد قد كحلت مقلتي، مرّت بضع ثوان، فبدأت في استعادة بصري رويدا رويدا، موجودة أنا بغرفة مظلمة لا نور بجدرانها، بالكاد أرى جسدي وذلك النّور المنبثق منز ثقب بأسفل الباب ، نهضت متراخيّة واتّجهت إلى الباب، وقمت برصّ وجهي في ثقبه، ثمّ مرّرت حدقة عيني يمينا وشمالا، لكنّني لم أتمكّن من ملاحظة أيّ شيء، وكأنّ الضّباب يحجب الطّريق عن بصري، بلجت القوّة على وجهي المتعب، كما تشرق الشّمس على سفوح الجبال، فرحت أضرب الباب بكلّ قوّة تربّعت بيديّ، وأصرخ بصوت بائس، متقطّع، أحسّ بأن لا أحد يسمعه سوى الجدران الّتي تعكس صداه :

- افتحوا الباب، ما الّذي تريدونه منّي بالله عليكم؟ ما الّذي تريدونه؟ ... أخرجوني من هنا.

وبعد أن خارت قواي، وتلاشت آمالي، كما تتلاشى الغيوم في وجود نور الشّمس، جلست على ركبتيّ محدّقة للباب اللّئيم بعينين مخضلّتين من البكاء، كما يحدّق السّجين لقضبان زنزانته، انكمشت ساجدة على الأرض، ذارفة دموعا متحجّرة بعواطف خوف، حزن ويأس، وبصوت أمرّ من عويل الموت، خرجت هاته الكلمات المتقطّعة من شفتي:

- يا الله.. أنت القويّ العزيز، وأنا ضعيفة، يا ربّ، أنا أثق بقوّتك وقدرتك فياربّ احم عبد الهادي ونجّ أمّي خديجة من الموت، ونجّني أنا من القوم الظّالمين. يا ربّ أنت الّذي قلت للشّيء كن، فيكون، فيا ربّ، تقبّل دعائي وتضرّعي، وارحم ضعفي وتذلّلي...

وبينما أنا متقلّصة حول نفسي، وأنقل صدى حزني وخوفي إلى ربّي، حتّى استمعت فجأة فحيح ثياب يقترب من الغرفة، لم يكن مجرّد وهم فحتّى خربشة المفاتيح تصدح خارج الباب بصوت متسارع واضح، بخطوات سريعة تراجعت لأقصى ركن بالغرفة، انكمشت حول نفسي هنالك، ووضعت رأسي بين يديّ من شدّة الخوف، انفتح الباب فارتفعت وتيرة تنفّسي، وقع الأقدام يقترب منّي رويدا رويدا، رفعت رأسي وحاولت تفرّس الرّجل الّذي دخل، لم أتمكّن من رؤيته جيّدا من شدّة الظّلام، اقترب منّي ووقف منتصبا دون كلمة، دسست أناملي أسفل كتفي وبصوت خائف مرتجّ قلت :

- من أنت؟ ... وما الّذي تريدونه منّي؟

الفصل الحادي عشر

حينما يفقد المرء أحد أحبّائه تظلم الحياة في عينيه، شاعرا بالموت يحوم حول قلبه، كما يحوم الطّائر حول الأشجار، فيفقد حبّه في الحياة وينطفئ نورها بصدره، ويندثر كما يندثر القمر في اقتراب موعد حضور الشّمس، فالرّجل إذا فقد عزيزا، والتفت حوله يجد الكثير من الأصدقاء الكثيرين، فيتصبّر ويتعزّى، وإذا خسر الإنسان مالا، وفكّر قليلا رأى النّشاط الّذي أتى بالمال سيأتي بمثله فينسى ذلك، ولكن إذا أضاع الرّجل راحة قلبه، أمّه.. فأين سيجد غيرها؟

فالأمّ هي كلّ شيء في هاته الحياة، هي التّعزية في الحزن والرّجاء في اليأس، والقوّة في الضّعف، والحنان في القسوة، هي ينبوع الحنوّ، الرّأفة، الشّفقة والغفران، فحينما تموت أمّك، فأنت هنا قد فقدت منبع الحنان الّذي طالما ارتويت من نهره، والهواء النّقي الّذي طالما استنشقته، والصّدر الّذي سندت إليه رأسك، واليد الّتي باركتك براحتها، والعين الّتي حرستك بدعائها، يبعث الشّقاء شبحا ليصطادك من النّور، ويرمي بك في ظلمات التّعاسة والأحزان، فتمتلئ حنجرتك بأنغام ذات سمفونية شجنة، ويرتبط لسانك بالكآبة،وترسم هالات الوحشة أسفل عينيك، وتختفي الرّاحة من صدرك كما لو أنّك ميّت على قيد الحياة..

ما هاته الضّوضاء؟ أصوات متضاربة بين بكاء أطفال وصراخ نساء، رأسي يؤلمني كما تؤلم الذّكريات النّفس المتعبة، تمكّنت من

فتح عينيّ بصعوبة، حرّكت حدقة عيني يمينا ويسارا، أنا بغرفة بمستشفى، ترى ما الّذي جلبني إلى هنا؟ شعرت بيد تلامس شعري استدرت قليلا يمينا، لأندهش بوجود فاطمة، بملامحها البريئة المنبسطة، اتّسعت عيناي تبرّقا وقلت بصوت متلعثم:

- فاطمة.. لكن كيف؟ ما الّذي جلبنا إلى هنا؟ هل أنا أحلم؟

أتاني ردّ ناعم خافت أشبه بنعومة الحرير:

- لست بحلم، لقد نمت البارحة بجانبي بعد أن كحل النّعاس عينيك، إذا ما رأيك.. ماذا نسمّيها؟

نهضت من مكاني منتصبا علّي أتدارك الموقف، قلت بصوت تقطعه الحيرة:

- من هاته الّتي سنسمّيها؟ هل أصبحت أبا؟

انبعثت شرارة غضب من عين فاطمة، واكتنف العبوس وجهها المصفرّ قائلة:

- نعم، لقد أصبحت أبا، هل النّوم سيطر عليك وأنساك كلّ شيء، لقد ولدت لدينا طفلة جميلة..
- ما الّذي تقولينه؟ هل صحيح كلامك؟ هل أصبحت أخيرا أبا؟

- نعم يا عزيزي، لقد أصبحت كذلك، ولديك طفلة، إذا اختر لها اسما، بين سيرين أو الهام أو رجاء.. ما رأيك؟

قهرتني فرحتي، فغلبت الدّموع جفوني وتساقطت أمطارا ساكنة على شغاف قلبي، اقتربت من فاطمة وقبّلت جبينها بكلّ إحساس مرهف، ثمّ سجدت سجدة شكر وحمد دون أن تفارقني العبرات المنسكبة الوديعة، وعلى حين بغتة دخلت الممرّضة الغرفة ثمّ قالت:

- بإمكانكم مشاهدة طفلتكم، هيّا تعالوا ورائي..

تحمّست أحاسيسي، وتموّجت حول قلبي، كما يتموّج زبد البحر في شاطئ الرّمل، أسماء كثيرة مشتّتة بعقلي، لكنّ اسم سيرين كان الأقرب لراحتي، مسكت يد فاطمة وساعدتها في النّهوض من السّرير... اتّبعنا الممرّضة في ممرّ المستشفى، لغاية الوصول لغرفة وضع الأطفال، أشارت الممرّضة بأصبع يدها لطفلة نائمة، ذات بشرة ناصعة البياض كالثّلج، ذات خدود زهرية كالتّوت البرّي، صرخت فاطمة بلهجة فرحة بريئة:

- انظر حبيبي... ما أحلاها وهي نائمة!

أمسكت يد فاطمة، ودخلنا سويّا الغرفة المليئة بالأطفال، خطوة خطوة، اقتربنا من طفلتنا شعور جذّاب يحاكي بهجة الورود بقدوم فصل الرّبيع، اقتربت من الطّفلة، وضعت أصبعي على خدّها الزّهري المتورّد في حنان، داعبتها قليلا، فتفتّحت عيناها الواسعتان

الجوهريّتان، كتفتّح زهرة جوريّ في فصل شتاء، قربت شفتي من أذنها المدبّبة الصّغيرة وهمست بالمعوذتين، وأنا أبدأ في سورة الإخلاص حتى سمعت رنّة هاتفي، ترى من يتّصل في هذا الوقت؟ حدّثت نفسي، وضعت يدي في جيبي فلم أجد الهاتف النّقّال، استدرت ورائي فتلاشى كلّ شيء حتّى فاطمة، سواد شديد، يزداد صوت الرّنة في أذني، الثّانية تلو أختها فلم يكن منّي سوى أن وضعت كلتا يديّ بين رأسي، وحجبت قليلا صوت الرّنين المزعج وصرخت كمجنون:

- توقّف... توقّف رجاء ..

*****

حاولت أن أفتح عيني فشعرت بثقل في جفوني، بدأ الثّقل يضيع تدريجيّا حتّى استطعت بمجهود أن أفتح عيني، لكنّني لم أتمكّن من رؤية شيء في بادئ الأمر، وكأنّ طبقة الدّموع قد أطبقت على عيني، مرّت بضع ثوان قبل أن تظهر الرّؤية شيئا فشيئا، لأجد نفسي مستلقيا على جنبي الأيمن، واضعا رأسي فوق صدر أمّي الملطّخ بالدّماء كطفل رضيع، فعلمت بأنّني كنت أحلم وحسب، فما أتعس الإنسان الّذي يستيقظ من حلم سعيد، لواقع أحزن فيتمنّى لو أنّه يكمل بقية حياته في الأحلام، ولا يرى ظلام الحياة أبدا، رفعت رأسي ونهضت ثمّ أخرجت الهاتف من جيبي، حدّقت في رقم المتّصل، مسحت عينيّ ثمّ أعدت التّحديق مجدّدا...

لم يكن وهما، رقم فاطمة مدوّن على شاشة الهاتف، ضغطت مسرعا كمتعطّش نهش الحنين عظامه، ثمّ قلت مباشرة بصوت متقطّع بين نسمات حزن وسرور:

- فاطمة... عزيزتي... هل أنت بخير؟ أين أنت بالله عليك؟

أتاني صوت رجوليّ خشن، تتحرّك في معانيه نغمات قسوة واحتقار:

- السّلام عليكم الأخ عبد الهادي، زوجتك عندنا، لو أردت استردادها فلتقابل الأخ أبا القاسم الأمين غدا بشارع ماريه، بالعمارة رقم عشرة والشّقّة رقم خمسة، حوالي السّاعة العاشرة ليلا إن شاء الله، ولن أحذّرك في أنّ أيّ محاولة تهوّريّة منك في إبلاغ الشّرطة أو جلبها معك، سيكون رسالة مباشرة لنا في قتل زوجتك، لا تكن متهوّرا ولا ترتكب أيّ حماقة... في أمان الله.
- دعني أتحدّث مع زوجتي من فضلك... أرجوك دعني أسمع صوتها فقط، أنا أتحدّث معك، هل تسمعني؟

باعدت الهاتف عن أذني مبصرا شاشته، انقطع الاتّصال فرحت أعيده لكن دون جدوى، الخطّ مغلق، ارتخت أصابع يدي فسقط الهاتف وارتطم أرضا، ثمّ وجّهت بصري نحو جثّة أمّي الهامدة، لملامح وجهها المنبسطة، ولعينيها المتجمّدتين، فلم يكن منّي سوى أن لامست أجفانها المتيبّسة، وأغمضتهما بأصابع يدي المغموسة بدمائها البريئة، ثمّ أغمضت عيني كذلك، وكأنّما أريد أن أعيد

بأجفاني الدّموع إلى أعماق قلبي، دموع تتكلّم بالسّكينة عن انسحاق قلبي.

الإقدام على بعض القرارات، كاختيار الحياة أو الموت، بعض القرارات مصيريّة إلى حدّ أنّ السّعادة والتّعاسة تقفان على مشارف ذلك القرار، تركتني أمّي، وزوجتي فاطمة بين الحياة والموت، وروحها مرهونة بي أنا فقط، فإمّا أن أتخلّى عن ضميري، وأفضّل راحة قلبي، مساعدا أعداء الله في سلب أرواح لا ذنب لها، لأنقذ روح فاطمة، إمّا أن أتخلّى عن فاطمة في سبيل أرواح أخرى، فأنا بين قلبي وعقلي، وحينما يكون الإنسان هكذا، فهو كغصن ليّن في مهبّ ريح شماليّة، وأخرى جنوبيّة، لكن كلا الأمرين وجهان لعملة واحدة، لكنّ الوجه الأهمّ هنا هو فاطمة، فهل سأتّصل بالشّرطة؟ أو أرضخ لإرادتهم وأغامر بنفسي وفاطمة؟

يا الله صبري ينفذ ثانية، ثانية، وقلبي يتآكل ويصاب برضوض داخليّة، هواجس متضاربة على رأسي من كلّ جهة، مرتبك ولا أدري ما العمل، وفي الأخير شمّرت عن ساعديّ ثمّ اتّجهت للوضوء لأصلّي ركعتي استخارة عسى أن ينير الله بصيرتي...!

*****

حوالي السّاعة العاشرة ليلا بشارع ماريه، وقفت قبالة العمارة رقم عشرة لم يبق لي سوى عشر خطوات عن باب الدّخول، لم أسر رمية سهم، حتّى تأوّهت وكأنّني أطرد هوائي الجبان من حلقي

مستبدلا إيّاه بآخر شجاع، ابتلعت ريقي مزيحا جميع ملامح القلق والارتباك، وخطوت خطوات مسرعة لباب الدّخول.

خطوة، خطوة، صعدت الدّرج مقتربا من الشّقة الخامسة، وقفت مقابلا باب الشّقة، تنهّدت مستفرغا خوفي الّذي سيطر على كلّ عضو بجسدي، ينتقل شيئا فشيئا لقدمي، ضغطت على يدي اليسرى، ثمّ دققت الباب، فتح لي الباب الرّجل الّذي التقيته سابقا بمقهى شكسبير، أبو القاسم الأمين بلحمه وشحمه، بادية على وجهه ابتسامة خبيثة، أشبه بابتسامة الثّعلب المكّار... قال ممشطا لحيته بأصابع يده:

- ما شاء الله.. تبارك الله، لقد وثقت بأنّك لن تخذلني، ولن تخذل إخوانك المسلمين.. بارك الله فيك أخي عبد الهادي.. بارك الله فيك.

ما إن قال هاته الكلمات حتّى انفجرت أحاسيس الغضب بصدري، كما تنفجر البراكين، وتناثرت الحمم المثيرة لصدري في جميع أنحاء جسدي، وساهمت في غليان نار الحقد بقلبي، وفيضان جرعة الانتقام بعروق يدي، فلم يكن منّي إلّا وأن غرست أصابعي في رقبته كما يغرس الأسد مخالبه في عنق ضحيّته، طوّقته بكلّ قوّتي وبصوت غضوب يفيض حزنا وأسى قلت:

- أنت السّبب.. أنت السّبب.

تململ صدى صوت أمّي في مسامعي على حين بغتة وهي تقول:

- عبد الهادي بنيّ، لا تضعف أبدا، لا تضعف مهما راودك الضّعف.

زاد الصّوت من حدّة غضبي، فرحت أضغط بشدّة على عروق رقبته، يحاول التّخبّط للإفلات فأزيد من شدّة الضّغط أكثر، حاول أن يلامس عيني بأصابع يده اليمنى، فضربته بمقدّمة رأسي ضربة على أنفه ثمّ أكملت رحلة القضاء على أوردته، مستشعرا لذّة الانتقام ونشوة القتل للرّجل الّذي لا يستحقّ العيش أبدا.

حرّك شفتيه بكلمات غريبة لم أستطع تمييزها مع انقطاع نفسه، خفّفت من شدّة الضّغط فقال بصوت متحشرج يخرج بصعوبة متقطّعا من شفته:

- لست السّبب في مقتل أمّك، صدّقني لست السّبب، إن لم أعد لجماعتي فلن ترى زوجتك، سيقتلونها صدّقني، هذا هو الاتّفاق.

لوهلة شعرت بالرّعب قد سيطر على أحاسيس الانتقام، ومنعها من الانتشار في بقية جسمي فخفّفت من شدّة التّمسّك برقبته، صارعتني الهواجس وسيطرت على أصابعي، وتغلّبت على شعوري الملحّ في الانتقام لروح أمّي، انتزعت يدي المحشورة بعروق رقبته، ليسقط أرضا محاولا استرجاع البعض من أنفاسه، جلس قليلا ليستردّ سيرورة تنفّسه وبعد أن أعاد الهواء لرئته، وقف وحدّق بي قليلا

بنظرات محمومة بسهام الغضب والامتعاض، ثمّ سدّد إلى فكّي الأيسر لكمة بقبضة يده القويّة زعزعت أضرسي من مكانها ثمّ قال:

- أحمق.. لو حدث لي أيّ مكروه لم تكن لترى زوجتك أبدا، هيّا أسرع ورائي ولا تفتح فمك بأيّ كلمة، سيكون زميلي في انتظاري بأسفل العمارة، هيّا بسرعة...

استجبت لأمره ونزلت الدّرج وراءه، كانت السّيارة بيضاء اللّون من نوع Polo تنتظرنا بجانب العمارة، اقترب منها أبو القاسم، تحدّث قليلا مع السّائق ، ثمّ فتح لي باب المقعد الخلفيّ فدخلت، جلست، وأخذت أتفرّس ملامح السّائق الّذي بدا لي بأنّني رأيته من قبل، مسحت عينيّ ثمّ أعدت التّحديق من زجاج السّيارة العاكسة لوجهه، وعلى حين غرّة تساقطت على عقلي صورته سابقا، كما يتساقط النّدى من أجفان اللّيل في الصّباح الباكر تذكّرته، هو الرّجل الّذي قابلته منذ حوالي سنة بمحطّة انتظار الحافلات، العراقي المدعو سليم، والآن بدأت معالم الفضول تتّضح قليلا في أفكاري، اقتحم أبو القاسم شرودي بعد أن استدار إليّ ممسكا حبّة دواء بين يديه قائلا :

- خذ أخي... تناول هاته الحبّة واعطني هاتفك النّقال..

لم أنبس ببنت شفة واكتفيت بالتّحديق إليه في ذهول.. فأردف يقول:

- خذ معها قارورة الماء هاته، لا تخف ليست سوى حبّة منوّمة لتفادي المشاكل في الطّريق..

أعطيته هاتفي النّقّال، ثمّ أمسكت الحبّة راضخا لطلبه دون أيّ اعتراض، وضعت الحبّة في فمي ثمّ أتبعتها برشفة ماء، لم تلبث سوى بضع ثوان، قبل أن أشعر بأنّ الحبّة بدأت تأخذ مسارها وبدأ مفعولها يسري في مركزي العصبيّ، بدأ النّعاس يكحّل عيني، كما يكحّل اللّيل الحالك أشعّة الشّمس، تراجعت قليلا واضعا رأسي على مقعد السّيارة، لتبدأ جفوني في الانغلاق رويدا رويدا...

*****

فجأة شعرت بالفزع الأكبر يقبض على قفصي الصّدري، أشعر ببرودة الماء الّذي لامس وجهي الذّابل وأرجاء من جسدي، تفتّحت جفوني بتسارع متذبذب، ضباب قد حجب عنّي الرّؤية.. بعد بضع ثوان، بدأ الضّباب في التّلاشي شيئا فشيئا، لأبصر حوالي ثلاثة رجال محيطين بي، تقدّم إليّ أوسطهم، ووضع كفّ يده على رأسي ثمّ أردف يقول:

- انهض يا بنيّ ولا تخف، أنت بين إخوانك...

تأمّلت لبضع ثوان ملامحه المتآكلة من شدّة التّجاعيد، والشّيب الّذي أشعل بصيلات شعره، يبدوا شيخا كبيرا في سنّ الخمسين، نهضت منتصبا، وكأسد متعطّش للهجوم، انقضضت على الشّيخ

ومسكته من صدره بكلتا يديّ، وبنبرة مشبعة بالقهر والخذلان صرخت قائلا:

- زوجتي.. أين هي؟ أريد رؤيتها الآن، أريد رؤيتها...

ارتجف الشّيخ جزعا، وتبدّد رجاله أمام وجهي، مثلما تتراكض أوراق الخريف أمام الرّياح، فلم يكن له سبيل سوى أن قال بصوت خافت هادئ:

- لا تقلق يا بنيّ، زوجتك عندنا في الغرفة الأخرى، وستراها بإذن الله ريثما تنهي مهمّتك... فصبرا جميلا.
- لن أعيد كلامي مرّة أخرى، قلت لك أريد رؤيتها الآن.

أسرع الرّجلان كالثّعالب وانقضّا على جسدي، أمسكني أحدهما من ظهري، بينما حاول الثّاني أن يمسكني من كلتا يديّ، حاولت أن أفلت من قبضة يديهما لكنّ قوّتي خارت أمام قوّتهما، فتمكّنا من إبعادي عن الشّيخ، وأحكما القبضة على ظهري، بعد أن شعر الشّيخ بأنّ سلطته قد تضعضت صرخ بأعلى صوت:

- اتركوه ... اتركوه...

أفلتني الرّجلان فابتعدت عنهما، واستعدت بضعا من أنفاسي الّتي سرقت منّي قبل قليل، تنهّد الشّيخ ثمّ قال بصوت أخفّ حدّة:

- اسمع يا أبا يزن.. اجلب له زوجته الآن.

خرج أبو يزن، وأنا أتتبّع حركاته بحدقة عيني، أتفرّس الغرفة الّتي تبدو بأنّها بمصنع قديم، أو مطبعة مهجورة، أو شيء من هذا القبيل، بعد حوالي دقيقتين عاد أبو يزن، فشعرت بمغص يداهم أحشاء بطني، وبأحاسيس ذعر تتسلّل عبر عروقي، رفعت عيني رويدا رويدا لأفاجأ بجسد فاطمة بعيد عنّي ببضع خطوات.. ما إن رأتني حتّى صرخت بصوت يشابه ضجيج الأمواج:

- عبد الهادي... عبد الهادي...

لم أشعر بجسدي إلّا وهو يرتمي بسرعة البرق على صدرها كنمر واثب، انغمست بين أحضانها وكأنّني أستعيد بضعا من آمالي عبر حضنها، فأحيانا الإنسان كلّ ما يحتاجه هو حضن فقط، حضن يعيد آماله، ويبعث في نفسه شعورا بالتّفاؤل، حضن فقط يكفي عن كلّ الكلمات، أبعدتها عن حضني ثمّ حدّقت في ملامحها المنقبضة، وعينيها المخضلّتين من البكاء، و اللّتان تعبّران عن التّعب الّذي عبُئَّ بجفنيها.. قلت بصوت مخنوق:

- هل أنت بخير عزيزتي؟ هل أذوك بشيء ما؟

هي تنتحب بصوت عميق، نابع من صميم الكبد، لم تنبس ببنت شفة، ثمّ عادت إلى أحضاني وكأنّها لم تملأ بعد جرعة شوقها، وبعد أن أنهكها البكاء وغلبتها العبرات، ابتعدت عنّي ثمّ أمسكت بكلتا يديّ وقالت بصوت مرتجف:

- لا... لم يفعلوا شيئا، أنا بخير والحمد لله لكن أمّي خديجة...!

أمسكت عن الكلام هنيهة، وأغمضت عينيها وكأنّها تحاول أن تعيد بأجفانها الدّموع لأعماق صدرها وتلامس صدري كذلك، ثمّ أكملت كلامها والغصّة تقطع ألفاظها:

- بالله عليك.. أخبرني بأنّها لم تمت..

شعرت بتوقّف الزّمن فجأة، تبعثرت كلماتي وارتجفت شفتي، حوّلت رأسي لأخفي دمعة محرقة استقطرتها الشّفقة من أجفاني، فلم يكن منها سوى أن أمسكت بأسفل لحيتي بيدها اليمنى وحوّلت وجهي ليقابل وجهها ثمّ قالت:

- تحدّث يا عبد الهادي بالله عليك، أخبرني، هي على قيد الحياة، أليس كذلك؟

إخترقت التّعزية وجهي المصفرّ، كما تخترق أشعّة الشّمس أعماق البحار ثمّ قلت:

- قدّر الله وما شاء فعل، انتقلت أمّي لرحمة الله تعالى... عظّم الله أجرك ..

ما إن سقطت هاته الكلمات على مسامع فاطمة، حتّى ذابت بين أحضاني، كما يذوب الشّمع في وجود النّار، ألوت عنقها تنتحب بصوت عميق، يذيب النّفس وما جاورها، وتئنّ أنين الواهلة الثّكلى،

بمنظر يحدّث عن ألم كانت قد فضّلت الإبقاء عليه في صدرها، ريثما تتأكّد من الحقيقة، وتقول بصوت مبحوح يشهق من البكاء:

- أنا السّبب، ما كان عليّ تركها بمفردها.. أنا السّبب ..

أخذت تستفرغ الدّموع من عينيها ملامسة شعلات بكائها صميم صدري، تركتها قليلا بين أحضاني لترتاح نفسها القريحة، وأخذت ألامس رأسها بيدي للتّخفيف عنها، وما إن هدأت قليلا، حرّكت رأسها بعيدا عن صدري، مسحت عبراتها المنسكبة الّتي تذيب الفؤاد وتثير الشّجون ثمّ قلت:

- فاطمة.. لست المذنبة، كلّ شيء بقضاء وقدر، لا يسعنا شيء لفعله سوى قول حسبنا الله ونعم الوكيل، والدّعاء لها بالرّحمة والمغفرة، أليس كذلك؟
- نعم معك حقّ، رحمها الله إنّا لله وإنّا إليه راجعون، عظّم الله أجرك.
- أجرنا وأجركم عند الله ..

وفجأة توضّعت يد على كتفي الأيسر، ولامس أذني صوت الشّيخ الخشن:

- يكفي يا بنيّ، يكفي ...هيّا خذها من هنا يا أبا يزن ..

فوضعت كلتا يديّ على كفّي فاطمة، وكأنّني أجمع عبر تجاعيد الكفّ شوقا وحنينا يخفّف من خوفي وارتياعي قائلا:

- أنت قويّة يا فاطمة.. عديني أنّك ستبقين كذلك مهما حصل، وتذكّري بأنّ الله حينما يكون بجانبك.. جيوش العالم لن تقدر على قوّتك، هيّا عديني..

لاحت على شفتي فاطمة ابتسامة محزنة، وبصوت مبحوح قالت:

أعدك، أعدك يا عزيزي...

بعد هنيهة خرجت فاطمة من الغرفة وتتبّعها أبو يزن، اقترب الشّيخ منّي ثمّ وضع كفّ يده على كتفي وقال:

- فلتنم يا بنيّ، ليبدأ عملك في الصّباح الباكر إن شاء الله..

الفصل الثّاني عشر

كثيرا ما نقوم في حياتنا بمجازفات عظيمة، مقحمين أنفسنا في دوّامة لا نور بعتمتها، تستفرغ هاته المجازفات أحاسيسنا، كما تستفرغ أوراق الشّجر قطرات النّدى، وقد تعلن أيضا فتحها للعالم المظلم المدعو التّعاسة، فحينما تكون هاته المجازفة رهانا على صديق، حبيب، زوجة أو والدين، فهنا نحن سنكون على مقربة من رسم معالم خسارة عظيمة، ستدخلنا في عالم تعيس ينهش من ذرّاتنا ذرّة، ذرّة، لكن حينما لا نملك الخيار، ونتوه في غيابات الحيرة والالتباس، ولا يبقى لنا أيّ سبيل سوى المجازفة، فلا بدّ من الإقبال عليها، فمن يتهيّب صعود الجبال، يعش أبد الدّهر بين الحفر، ومن يخش المرتفعات، سيبقى في الحضيض دوما، لذلك أحيانا لابدّ من الثّقة بالنّفس، وبقوّة الله تعالى الّتي إن لامست شغاف قلب أحد، تمكّن من هزيمة أيّ شيء كان يبدو مستحيلا في بادئ الأمر.

أشعر بالدّوخة وألم مصاحب لها في أسفل صدري، لا أستطيع الحركة، أشعر بأنّ شيئا قد أطبق على جسدي بثقله، غمائم أرق تغشّت عيني كما يتغشّى اللّيل غروب الشّمس، بعد ثوان قليلة بدأ الثّقل يتلاشى من على أجفاني تدريجيّا، حتّى استطعت بمجهود أن أفتح عيوني، حرّكت حدقة عيني هنا وهناك، أبصرت أنبوبا متدلّيا من حلقي موصولا بكيس بلاستيكي ملتصق بحامل من الألمنيوم، موجود فوق رأسي مباشرة، لم أتمكّن من رؤية جسدي لأنّه كان مغطّى بالكامل بغطاء أبيض، وبينما أنا أتفرّس ملامح المكان

فوجئت بملامح شخص أعرفه من قبل، ولا يبدو غريبا عليّ مطلقا، ضغط عقلي على أعصاب ذاكرتي لكي يتيح لنفسه فرصة أكبر لتذكّر هذا الشّخص، اتّسعت عيناي تطلّعا لملامح وجه الرّجل، وبعد أن استطعت الغوص في عمق ذاكرتي، تمكّنت من معرفة هوية الرّجل، حاولت التّحدّث فعصتني شفتي، قلت بصوت غير مسموع، لا يسمع صداه سوى نفسي :

- عبد الهادي؟

وبعد بضع ثوان من صراعي مع شفتي المتيبّسة استطعت التّغلب عليها، وفتحتها لأتيح الفرصة للكلمات للخروج، وبينما أنا كذلك حتّى وضع عبد الهادي يده على شفتي وقال بصوت متشبّع بنغمات الحنو والرّأفة:

- حمدا لله عزيزتي على سلامتك، لا تحاولي الكلام رجاء..

حاولت أن أنهض من مكاني، ضغطت بكلتا يديّ على السّرير لكي أتيح لنفسي فرصة أكبر تساعدني في النّهوض، وبينما أنا كذلك حتّى أمسك عبد الهادي ساعدي قائلا:

- لا تتحرّكي عزيزتي.. فلترتاحي قليلا..

و بغتة تفجّر بركان القوّة بشفتي، واستطعت بتلك القوّة تحريك شفتي، وبصوت قد عطّل الأرق نغماته، خرجت هاته الكلمات من شفتي المهتمجة:

- ما الّذي جلبني إلى هنا؟

*****

ركعتا صلاة الاستخارة، كانتا كفيلتين بإنارة بصيرتي، وبثّ روح القوّة في صدري، بعد أن ظلّت الأفكار تتزاحم على عقلي، وتهزّ أحاسيسي، معلنة بذلك انطلاق حرب ضارية مزعزعة كياني الدّاخلي، كما تزعزع الزّلازل باطن الأرض، غصت في عمق التّكهّنات، شاعرا بأخيلة هواجسي متمايلة حول أحشائي، فالرّهان في هاته المجازفة فاطمة ولا مجال للتّهوّر أبدا...

أسئلة وإجابات متناثرة حول عقلي من كلّ حدب، فلم يكن لي سبيل آخر غير تصديق الإحساس الغريب، المريح الّذي يلحّ عليّ بضرورة إبلاغ الشّرطة، صدّقته واثقا بأنّ راحة قلبي كامنة في الاستخارة الّتي قمت بها قبل قليل...

بعد هنيهة أمسكت هاتفي النّقّال وبحثت عن رقم زميلي في الجامعة الأستاذ سام، ما إن فتح الخطّ حتّى بادرت بالكلام قائلا:

- مرحبا صديقي الأستاذ سام...
- أهلا بك، كيف حالك عبد الهادي؟
- بخير.. وأنت؟
- كذلك أنا... شكرا لك...

- أحتاج خدمة بسيطة منك عزيزي... أنا بمأزق وأحتاج مساعدتك...
- تفضّل يا صديقي.. بكلّ سرور.

وبعد أن رويت له بإيجاز ما حدث، اقترح عليّ أن يبلّغ صديقه الضّابط، وهو من سيتمكّن من مساعدتي، لم يكن لي سبيل سوى أن أقبل باقتراحه، بشرط أن يترك الأمر في غاية السّرّية ويطلب منه مهاتفتي دون إبلاغ الشّرطة...

بعد حوالي نصف ساعة اتّصل بي الضّابط المدعو جون، علم مكان منزلي وأعلمني بأنّه سيكون عندي بعد ربع ساعة...

*****

جرت الأمور كما خطّط لها، وقدم الضّابط جون لمنزلي، بعد تأكّده التّام بأنّه لم يثر أي انتباه لقدومه، رويت له ما حصل بالتّفصيل، وبعد أن اتّضحت ملابسات القضية له، اقترح عليّ أن يأخذ جثّة أمّي لقسم التّحقيق الجيني، والشّرطة العلمية، لرفع البصمات ثمّ أخذها للتّشريح عسى أن يتمكّنوا ولو قليلا، من معرفة الأشخاص المتورّطين في العمليّة، قبلت اقتراحه الّذي كان السّبيل الوحيد لي، اتّصل الضّابط جون بصديق له ليأتيه بسيارة لأخذ جثّة أمّي.

أتى صديق الضّابط جون، فقمنا جميعا بوضع جثّة أمّي في المقاعد الخلفيّة للسّيارة، أعلمه بأن يخبر قسم التّشريح بأنّ الضّابط جون

من بعثه، وأمره بأن يترك الأمر في غاية السّرّية لغاية أن يوافيه بعد حوالي ساعة ...

*****

بعد حوالي نصف ساعة من المناقشة، استطعت مع الضّابط جون الخروج بخطّة، بها نوع من المجازفة.. خطّة مبنية أساسا على تنفيذ أوامر الجماعة بحذافيرها، والابتعاد كلّ البعد عن إثارة الشّكوك وعن أعماق التّهور، أعطاني الضّابط جون شريحة هاتف، ستكون هي الحجر الوحيد بصفّي، الحجر الّذي سيضرب عصفورا وينقذ الثّاني، حيث أنّ هاته الشّريحة ستساهم في العثور على مخبأ الجماعة الإرهابيّة... القضاء عليها، وإنقاذ الرّهينة فاطمة في نفس الوقت.

القلب النّابض لهاته الخطّة هو شريحة الهاتف المبرمجة بنظام التّموضع العالميّ GPSحيث أنّها تقوم بإرسال موجات للحاسوب المتّصل برقمها السّرّي، بمجرد أن تتّصل بهاتف ما.

لم يتبقّ لي سوى مكان جيّد لإخفاء الشّريحة، وبعد دقائق من التّفكير، اقترح الضّابط جون أن أخفي الشّريحة بداخل حذائي فوافقت على ذلك، لا مجال للعودة الآن، بعد رسم معالم الخطّة، لم يتبقّ لي شيء لفعله سوى تطبيقها على أرض الواقع، أثق في الله أوّلا وفي نفسي ثانيا، سأعتمد على شراع الصّبر لإبحار سفينتي، في رحلة مجازفة إلى جزيرة التّعاسة أو جزيرة الفرح، أنا مقبل على أكبر

مجازفة سأقوم بها في حياتي، مجازفة فوزها عظيم وخسارتها أعظم، فرهانها لن يكون سيارة أو نقودا أو منزلا، رهانها سيكون روحا ويا ليتها أيّ روح... !

*****

بعد أن تركني الشّيخ ورجاله، استلقيت بأقصى ركن في الغرفة، أتطلّع للنّوم عسى أن لا يغلب التّشاؤم نفسي ويتسلّل الخوف عبر قوّتي، غدا إن شاء الله سيريني الشّيخ ما الّذي يريده منّي بالضّبط، ولا بدّ أن أستغلّ أيّ فرصة سانحة، لاستخدام شريحة الهاتف النّقّال، غدا سيكون الحسم، فإمّا أنّني أتشجّع وأهاجم بكلّ ما أوتيت نفسي من قوّة، أو أبقى في مكاني كرجل بائس شعر بأن لا أحد سينقذه من موته الحتميّ، فأنا الآن بين الذرات المتنافسة كالقوّة والضّعف، الأمل واليأس، الشّجاعة والجبن، سأغمض أجفاني عسى أن يدقّ النّعاس عيوني..

بعد ساعات من التّوهان في غيابات النّعاس، تمكّنت من فتح عيوني بعد أن تمايل على مسامعي حديث الشّيخ الّذي يقول:

- هيّا يا بنيّ، انهض وتوضّأ بسرعة، سنصلّي جماعة صلاة الصّبح، خذ هذا الدّلو معك....

*****

توضّأت، واتّجهت وراء الشّيخ إلى قاعة قد اصطفّ فيها حوالي ستّة رجال للصّلاة، تقدّم الشّيخ لمقدّمة الصّف وكبّر للصّلاة، صراحة لم أشعر بخشوعي أبدا، فكلّ ما كان يشغل بالي هو الشّريحة الّتي تركتها في حذائي بعد نزعه، انتهت الصّلاة وبكلّ سرعة اتّجهت للحذاء لألبسه، الحمد لله لم تلق هواجسي أي صدى ضدّ القدر... سارت الأمور على ما يرام، بعد نهوض الشّيخ قدم نحوي وطلب منّي أن أتبعه لغرفة مجاورة، اتّجهت وراءه إلى غرفة لا تبعد عن غرفة الصّلاة سوى ببضع خطوات...

الغرفة مخيفة من ملامحها المرهقة الّتي تبدو كأنّ حربا عالميّة قد ضربت جدرانها، الغرفة تحتوي على متفجّرات من نوع C4 بالإضافة للعديد من الأسلاك والسّترات، ومختلف أنواع الهواتف النّقّالة من نوع Nokia، Samsungو Rover Range الّتي يتّضح بأنّها ستستخدم لضبط توقيت المتفجّرات.

*****

أنا أتطلّع للمكان في ذهول وتهيّب شديد، والشّيخ يشرح لي ما عليّ فعله، في حين أنّني سارح بذهني متخيّلا تلك الأرواح البريئة الّتي ستزهق بدم بارد، وإلى تلك الأجساد الّتي ستسلب بنفس أسود لا رحمة بين ذرّاته، وكلّي تعجّب في نتائج هاته العمليّة الشّنيعة الّتي يحضّرون لها، لم أتمكّن من التّركيز فيما قاله الشّيخ غير الكلام الأخير الّذي يقول فيه:

- ... لذلك يا بنيّ نحن نحتاج مساعدتك، في صنع أحزمة ناسفة مصنوعة من المتفجّرات الكيميائيّة، وستستعمل في ذلك الأسيتون، وحمض الهيدروليك اللّذان يدخلان في تركيب متفجّرات TATP بالإضافة لمادّة الترايتروتولوين الّتي ستستعملها في صناعة متفجّرات TNT، وكلّ ما قد تحتاجه ستجده هنا في هاته الطّاولة، لا تنس أن تناديني إن احتجت لأيّ شيء... اتّفقنا بنيّ؟

أومأت له برأسي ليستطرد:

- ألا تريد شيئا منّي الآن؟
- لديّ سؤال بسيط من فضلك يا شيخ ...!
- أدعى أبا بغداد، تفضّل بنيّ...
- نعم يا شيخ أبو بغداد، واعذرني على تطفّلي، لكن قتلني الفضول لمعرفة كيفية معرفتكم لهويّتي ومكان إقامتي، هل كان الأخ سليم هو من أخبركم عنّي؟

ابتسم الشّيخ ابتسامة خفيفة سالت على لحيته كما تتسايل الأنهار بين الجبال ثمّ قال:

- كلّ شيء بقضاء وقدر بنيّ، كلّ شيء مكتوب عند الله في كتاب.. فالله تعالى قد اختارك دون الآلاف لتكون من حلفائه وتنصره ورسوله، والنّصر من عنده عزّ وجلّ، فلتبدأ

عملك، ولو احتجت لأيّ شيء ناد على أبي يزن، سأذهب الآن وسأعود بعد عشر دقائق، وفّقك الله بنيّ.

وبعد دقيقة، خرج الشّيخ أبو بغداد، فاختليت بنفسي، واشتعلت شرارة تفاؤل بصدري، كما تشتعل النّار في وجود ذرّات الكربون، انصبّ جلّ تفكيري حول الشّريحة الموجودة بحذائي، ليس لديّ أكثر من عشر دقائق، قبل أن يعود الشّيخ. لابدّ من السّرعة وتوخّي الحذر التّام، تأوّهت مستبعدا وجسي ،فهنا لا مجال للارتياع مطلقا، فأيّ خطأ سيكلّفني الكثير، ولو كانت حبّة عرق مثيرة للشّكوك، دعوت في سرّي بالتّوفيق وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت وعليه فليتوكّل المتوكّلون، جلست على المقعد وقابلت الطّاولة، نزلت بجذعي إلى أسفل قدمي ونزعت حذائي الأيسر في هدوء شديد، بعد أن رأيت الشّريحة مسكتها ووضعتها على الطّاولة، ثمّ أعدت ارتداء الحذاء، لم يتبقّ لي شيء لفعله الآن سوى خطوة وضع الشّريحة في أحد الهواتف الموجودة أمامي... يا لله ترى هل سأنجح في ذلك...؟

*****

لوهلة من الزّمن استطعت إغماض عيوني، والغوص في عمق عقلي، ضاغطة على ذاكرتي عسى أن أجابهها، فترضخ لي وتسلّمني ما أريد، بعد هنيهة شعرت بصداع مؤلم بدأ في الانتشار، رويدا رويدا في رأسي، وكأنّ جهة الدّماغ الخاصّة بتذكّر الأحداث القديمة تراوغ محاولتي للتّذكّر، ضغطت أكثر وأكثر، لتتراءى لي فجأة صورة رجل

بلثام أسود، يقترب منّي خطوة خطوة، وتتزايد خفقات قلبي سرعة مع كلّ خطوة.

يقترب الرّجل من جسدي بنبرة مشبعة بالغضب، يخرج من بين تلك الشّفاه، صراخ بالكاد أستطيع سماع صداه في أذني، لم يتبقّ له سوى خطوة عن جسدي، أمسك سلاحه وحطّ رحاله على مقدّمة رأسي، وبصوت يشابه زوبعة الرّمال صرخ:

- هيا... انهضي ورائي دون أيّ كلمة.

لم يكن لي أيّ سبيل سوى الاستكانة لقوّته، والرّضوخ لرغبته، بعد أن أنارت نار الذّعر ضوء خافتا في قفصي الصّدريّ، نهضت من مكاني، وحاولت أن أتفرّس ملامحه المختبئة وراء ذلك القناع الأسود، لم أستطع أن أرى شيئا سوى عينيه السّوداويتين اللّتين تقطران حقدا وقسوة، وفمه المتيبّس من الشّدة والقوّة، وبعد أن وقفت بمجهود، خرجت من شفاهي البائسة هاته الكلمات المرتجفة:

- ما الّذي تريده مني؟ أين ستأخذني؟

تطايرت شرارة مغتاظة لأعماق صدري الهلع، ودون أن ينبس ببنت شفة، وضع مقدّمة سلاحه بجبيني، وحرّكه يمينا وشمالا، وكأنّه يخبرني بأنّه لا يريد إعادة كلامه، وضعت خطواتي الأولى، وتحرّكت بخطوات أثقل من خطوات السّلحفاة، تراجع الرّجل قليلا فأصبح ورائي، وضع يده اليسرى حول رقبتي، وطوّق جسدي كأفعى

مجلجلة، أمّا يده اليمنى فبقيت حاملة للسّلاح، وجّه السّلاح للجانب الأيمن من رأسي، وبنبرة قاسيّة غاضبة "قال:

- تحرّكي هيّا، ولا تحاولي فعل أيّ شيء متهوّر، سأقتلك لو حاولت ذلك..

لم يرغب جسدي في المقاومة، فبدأت أقدامي المرتعشة بالتّحرّك إلى الأمام، أخذت أتفرّس المكان الّذي يبدو مهجورا، لكن ضباب الرّهبة الّذي اقتحم مقلة عيني، حجب عنّي الرّؤية الواضحة للمكان، تململت في مسامعي أصوات كثيرة متضاربة، بين صراخ وإطلاق نار وصوت ميكروفون يقول:

- أنتم محاصرون، سلّموا أنفسكم، لا داعي للمراوغة...

بعد بضع ثوان وصلنا إلى باب كبير، كان مفتوحا من جهة، ومغلوقا من أخرى، في الجهة المفتوحة كان هنالك رجلان يطلقان النّار إلى الخارج، ابتعد الرّجلان عن الباب فدفعني الرّجل بيده اليسرى لباب الخروج، لأفاجأ بوجود رجال الأمن والشّرطة خارجا، قال أحد رجال الشّرطة الحامل للميكروفون:

- سيّدي أفلتها من يدك من فضلك، سيّدي من فضلك...

وعلى حين غرّة، استوقف الصّداع صدى ذاكرتي، فلم أتمكّن من التّذكّر أكثر، وأنّ طبقة من النّسيان قد أطبقت على ذاكرتي فجأة،

بدأت جفوني في الانفتاح، بعد ثوان استطعت أن أفتح عينيّ، لأجد نفسي بنفس المكان الّذي كنت فيه قبل قليل... المستشفى!

*****

مددت نفسي، وأخرجته بقوّة، استعادة لتنفّس طبيعي بعد اضطراب وانفعال، ثمّ مسحت حبّات العرق الّتي لامست جبيني، واتّخذت من تجاعيده مقرّا لها، أعدت ارتداء الحذاء وكلّ الأمور تجري على ما يرام لحدّ السّاعة، لم يتبقّ لي شيء لفعله سوى وضع الشّريحة في أحد الهواتف الموضوعة على الطّاولة...

سمّيت الله، ثمّ أخذت أقلّب الهواتف الّتي أمامي، الواحد تلو الثّاني، لم يشتغل الأوّل، ولا الثّاني ولا الثّالث، بدأ شبح اليأس بالتّسلّل لقفصي الصّدريّ، وتغشى الوهل أحاسيسي، كما يتغشّى اللّيل أطراف النّهار، وبعد عدّة محاولات باءت بالفشل، انتفضت من مكاني سرورا، شاعرا بنشوة الأمل تقتحم غيوم اليأس الّتي توضّعت حول شغاف قلبي، لقد اشتغل هاتف من نوع Nokia 1100، بكلّ سرعة نزعت بطّاريته من عليه، وأدخلت الشّريحة في مكانها المخصّص، وأعدت تركيب البطّارية من جديد، ثمّ ضغطت على زرّ التّشغيل، وبينما أنا كذلك، حتّى شعرت بكفّ يد على كتفي الأيمن، وكأنّها توضّعت على قلبي ورفعت من جرعة هلعه، انقطع تنفّسي، كما توقّفت حبّات العرق عن التّصبّب، وكأنّ كلّ عضو بجسدي شعر بخطورة الموقف، حاوت تمالك أعصابي فضغط جهازي العصبيّ على قلبي ليخفّف من سرعة دقّاته، دون أن أنبس بكلمة

استدرت في هدوء لأفاجأ بملامح منقبضة، قد كحّلت التّجاعيد طريقها، وبلحية خفيفة احترقت شيبا، إنّها ملامح الشّيخ أبي بغداد، حدّق بي قليلا بنظرة مخيفة وقورة، ثمّ أردف يقول :

- أمامك مهلة يومين يا بنيّ، لتنهي مهمّتك وتعود لمنزلك مع زوجتك، إن شاء الله.. وفّقك الله...

انبعثت تنهّدات من روحي، وتنفّست الصّعداء، مستعيدا بذلك سيرورة نبضات القلب المعتادة، استعدت ّتنفّسي الطّبيعي بعد اضطراب شديد، ثم قلت بصوت هادئ يخفي قلقه بين نغماته:

- حاضر يا شيخي، بإذن الله تعالى....

*****

بعد نصف ساعة منذ أن وضعت الشّريحة بالهاتف النّقّال، حتّى تململت حول مسامعي الأصوات الكثيرة المتعاليّة للشّرطة ورجال الأمن، صيحات كثيرة مرتفعة، أصوات تكبير وتهليل، طلقات نار، وكأنّ حربا عالميّة ثالثة قد أعلنت اشتعال فتيلها، بعد هنيهة أتى أبو يزن وفي يده سلاح رشّاش من جهة، وحبل من الجهة الثّانية، متطايرة سهام محتدمة من عينيه، اقترب منّي موجّها السّلاح الرّشّاش إلى صدري، ثمّ قال بصوت حازم منفعل:

- اجلس في المقعد ولا تتحرّك ...

استجبت لأمر أبي يزن، وجلست على المقعد، فجثا على ركبتيه وقام بربط كلتا قدميّ مع أقدام المقعد ثمّ خرج مسرعا، بعد هنيهة استجمعت جلّ قواي، وحاولت بكلّ يأس، أن أنزع ربطة الحبل القويّة الّتي طوّقت قدميّ، بعد مجهود كبير استطعت نزع ربطة الحبل من قدمي اليمنى، ثمّ أتبعتها بقدمي اليسرى، ونهضت من مكاني، حدّقت شمالا إلى باب الخروج، ورحت أجري صوبه وكأنّني مثل ذلك السّجين الّذي سيشعر بالحرّية بعد أن فقدها لسنوات في السّجن، بعد أن خرجت من هاته الغرفة، تتبّعت طريق الرّواق على يميني، ودون أيّ انتظار، تهت في طريقه الّذي لا أعرف منتهاه إلى أين !

فسرت والضّباب يكسو مقلة عيني، وبينما أنا كذلك حتّى سمعت صوتا، غاضبا ومحتقنا:

- ضع يدك فوق رأسك ولا أيّ حركة.

حرّكت حدقة عيني شمالا، فإذا بي أبصر ملامح أبي القاسم الأمين المنقبضة، بلحية تتراقص حنقا، وبعيون تبعث شرارة مهتاجة، حدّق بي قليلا ثمّ قال:

- هيا استدر وتحرّك أمامي بسرعة.

تسمّرت في مكاني منتصبا دون أيّ حركة، شعور غريب بالانتقام يراودني، كريّات الشّجاعة تضخّ دماءها في عروقي، لا بدّ من فعل شيء ما، قد يقتلني، لا أستطيع الوثوق به، قد يجعلني رهينة بين

يديه، اختلطت عليّ الأفكار وتغشّت الهواجس صدري، شعرت بأنّني مثل أسير يائس ستقدّم روحه لملك الموت رهانا ضدّ الأعداء.

وعلى حين غرّة من توهاني في غيابات الأحاسيس، أنارت الشّجاعة شهابها في كفّ يدي، فتحرّكت مسرعة وانقضّت على وجه أبي القاسم الأمين، كما تنقضّ اللّبؤة على من يزعج أبناءها، ضربته بكلّ قوّتي، فشعرت بأنّ قوّته الزّائفة قد تزعزعت من مكانها، فرحت ألكمه بسرعة على فكّه الأيسر بقبضة يدي اليمنى، وبينما حاول استعادة توازنه ليمسك المسدّس جيّدا، انصبّ جلّ تفكيري حول المسدّس، فتصارعت معه على إمساكه، أضغط على أصابع يده ضغطا شديدا، علّه يفلته، لكنّ أصابعه القويّة التصقت معه، وكلّما أزيد من قوّتي، يضاعف من قوّة تمسّكه بالمسدّس، وبينما أنا كذلك حتّى ضربني فجأة بمقدّمة جبينه على أنفي، ترنّحت وتراجعت قليلا، شاعرا بالدّوار يحوم حول رأسي، شددت أزري وانقضضت عليه بيدي اليمنى على فكّه الأيسر، لدرجة تناثر كريّات الدّم في الهواء، سقط أبو القاسم أرضا من شدّة الضّربة، فارتميت على جسده، وضعته بين ركبتيّ، ورحت أضربه ضربة تلو الثّانية لوجهه، فتتبعثر دماؤه مع كلّ ضربة، بعد أن وهنت قواي، وضعت كلتا يديّ على رقبته ثمّ صرخت صراخا يائسا :

- هل في قلوبكم رحمة؟ بالله عليكم كيف تدعون أنفسكم بالمسلمين؟ هل حقّا أنتم مسلمون؟ أنتم لا تنتمون للدّين

الإسلاميّ مطلقا، ولا تمثّلون الإسلام أبدا.. أنتم قتلة، أنتم إرهابيّون...

خرجت من شفاهه الملطّخة بالدّماء، كلمات متقطّعة جارحة بحلاوتها:

- ليس لي ذنب في مقتل أمّك، صدّقني والله إنّه ليس لديّ أيّ ذنب في مقتل أمّك...

تبدّدت مشاعري، وانهارت أعصابي، فصرخت بصوت قد أعمت القسوة بصيرته:

- لا ذنب لك؟ إذا ذنب من؟ هيّا أخبرني ذنب من؟

حاول أبو القاسم الأمين الكلام، فخفّفت من شدّة ضغطي على رقبته، فقال بكلمات تقطعها التّنهدات الأليمة الّتي تتكلّم بالسّكينة عن ندمه وانسحاق قلبه:

- صدّقني ، كما قلت لك ليس ذنبي أبدا، أنا أصلا كنت مثلك سابقا، لديّ زوجة وولدان، أعمل في شركة لنقل البضائع ، أعيش حياة جميلة وكلّ الأمور تجري على ما يرام، حتّى استطاع هؤلاء الجماعة أن يلفّقوا لي تهمة بيع المخدّرات، فقد وجدت الشّرطة المخدّرات في شاحنة نقل البضائع الخاصّة بي، واتّهمت بجريمة نقل المخدّرات وبيعها، وحكم عليّ بالسّجن، هدّدوني بقتل عائلتي إن دخلت أنا السّجن،

فأصبحت بين نارين إمّا أن أدخل السّجن وأترك عائلتي دون حماية، فيصبحون بين قبضة أيديهم، أو أعمل معهم لأبقي عائلتي في أمان، ففي كلا الحالتين فقدت وظيفتي... فلم يبق لي سبيل آخر سوى العمل معهم والرّضوخ لهم.

وعلى حين غرّة سمعت صوت تفجير قويّ، ثمّ استكمل الصّوت بخطوات أقدام تقترب من مسامعي رويدا رويدا، لقد كانت خطوات رجال الأمن مع الضّابط جون، ما إن اقتربوا حتّى صرخ الضّابط جون:

- أفلته يا عبد الهادي، أفلته رجاء... هو لا يستحقّ...

حدّقت في ملامح أبي القاسم الّتي عبثت بشغاف قلبي، واستعطفت حاله، لكن سرعان ما تذكّرت فاطمة فصرخت صراخا جزعا:

- زوجتي.. زوجتي فاطمة أين هي؟

حملق الضّابط جون بي، دون أن ينبس ببنت شفة، ثمّ وجّه وجهه إلى الأرض وكأنّما يحاول أن يخفي شيئا ما يراوده، توجّست في نفسي خيفة، وتغشّت غمائم الهلع صدري، فدفعته وركضت في الرّواق لأصل لباب الخروج فزعا، تفاجأت بأشلاء الضّحايا المترامية، وبرائحة عفن الدّماء المختلطة مع رائحة التّراب، حرّكت حدقة عيني يمينا ويسارا، ثمّ تقدّمت متفرّسا الضّحايا الّذين امتزجوا بين الجماعة الإرهابيّة وحوالي ثلاثة

رجال من الشّرطة، وبينما أنا كذلك حتّى أبصرت شمالا على بعد عشر خطوات مروحية، وبالقرب منها ثلاثة ممرّضين متجمّعين حول جسد موضوع على سرير متحرّك، اقتربت منهم، وما إن أبصرت تلك الملامح، حتّى شعرت بالفزع الأكبر يتساقط على كلّ عضو بجسدي فجأة، استعمتني أحاسيسي وصرخت جزعا :

- فاطمة... فاطمة ..

اقتربت لجثّتها الملطّخة بالدّماء بعد أن أحاطت الدّموع بمقلة عيني، مسكت يدها ثمّ قلت بنغمة استعطاف وحزن:

- عزيزتي فاطمة.. بالله عليك لا تتركيني وحيدا.

قاطع تنهّداتي أحد الممرّضين قائلا:

- ساعدنا يا سيّدي، سنضعها في المروحيّة ..

ساعدت الممرّضين في وضع سرير فاطمة داخل المروحيّة، ثمّ صعدت معهم، وجلست بجانب فاطمة، وبعد أن أقلعت المروحيّة، أمسكت يدها وفتحت قلبي لها وكأنّها تسمعني، فخرجت هاته الكلمات المتقطّعة مع تنهيداتي:

- فاطمة، عزيزتي.. أعلم بأنّك قاسيت وعانيت الكثير في هاته البلاد الّتي لم تكن خيرا عليك مطلقا، وأقحمتك أنا في مصائب لا ذنب لك فيها، لطالما عرفتك قويّة وستبقين

كذلك، بالله عليك لا تتركيني وحيدا.. تركتني أمّي، فلا تتركيني أنت كذلك، تمسّكي بالحياة رجاء، فلا أحد سينير عتمتي في الحياة غيرك، لا تفلتي يدك من يدي بالله عليك.ابقي بجانبي يا فاطمة... !

*****

وبعد أن أنارت الذّاكرة عقلي، وفتحت عينيّ في غرفة المستشفى، رمقت عبد الهادي قليلا وبصوت خافت حرّكت شفتيّ المتعبتين قائلة:

- هل نجونا...؟

أمسك عبد الهادي بيدي الملتصقة بأنبوب وضمّادة، ثمّ قال مازحا:

- نعم.. لقد نجونا عزيزتي.. حمدا لله على عودتك وسلامتك...
- ما الّذي حصل لي؟ أشعر بألم حارق أسفل صدري.
- لا تقلقي، أنت بخير والحمد لله، لقد نجوت من رصاصة كانت على بعد بضعة سنتيمترات من اختراق قلبك، لكن قدر الله كان لصفّي وأبقاك بجانبي في هاته الحياة.
- هه! هل لا زالت الرّصاصة بجسدي؟
- لا.. لقد تمكّن الأطبّاء من نزعها، وأغلقوا لك المنطقة المصابة، أنت قويّة وبطلة ما شاء الله.

ابتسمت بصعوبة ثمّ حرّكت شفتي اليابسة في ظلّ وجود أنبوب محشور بحلقي، وبصوت مرح خافت قلت:

- هل أنا كذلك؟

صورة من هجمات باريس 2015

الفصل الثّالث عشر

الموت وهو ذلك الشّبح الأسود الّذي يخترق أجسادنا، معتمدا على أسلحة الضّعف الموجودة فينا كسلاح مضادّ يحاربنا به، فبعد التمكّن من التّسلّل لباطن أجسادنا، ينشر هنالك سواده المميت بكلّ عضو حيّ من أعضائنا...

شبح لا يعرف الرّحمة، شبح خبيث يكره الإقامة ويعشق الاستيطان والسّلب والنّهب، فهذا الشّبح بمجرّد أن يطرق باب أحد ما، هنا سيكون قد قدّم لنفسه تذكرة مجّانية للقضاء عليه بالتّغذّي عبر كلّ شريان ووريد بجسده.

لكن أحيانا ليس هذا المتمرّد هو من يقتلنا، بل الذّكريات من تفعل ذلك، الذّكريات من تميتنا اللّيلة تلو الأخرى، فالإنسان الّذي يكدّس أعباء الحياة في صدره، ويثقل كاهله بالمصائب، فمع كلّ ذرّة صبر، تموت ذرّة من جسده، ومع كلّ انتكاسة، يموت جزء من قوّته...

فيموت الانسان تدريجيّا، ويذبل مع الزّمن، كما تذبل الأزهار في انعدام الماء، ليأتي الخريف، فيكمل على ما تبقّى من حياتها، كذلك الموت يأتي ويأخذ الإنسان، وقد ماتت سابقا كلّ أعضائه، ولم يتبقّ سوى قلبه المقاوم لأعباء الزّمن، وبهذا لن يبذل الموت أيّ جهد لسلب روح الإنسان، يأخذ الرّوح على طبق سهل بكلّ راحة وسكينة...

- أيّها المزعج.. هيّا سلّمني طفلتي الجميلة بسرعة.

- وهل تغارين من طفلتك؟
- وكيف أغار من سعادتي؟
- تغارين منها بكلّ بساطة لأنّها أجمل منك، ونحن منسجمان مع بضعنا، ونحبّ بعضنا البعض كما يحبّ الورد رائحة النّدى، انظري، انظري إنّها تحدّق بي وكأنّها تقول: نعم معك حقّ ...

تجعّدت جبهة فاطمة واكتنفها العبوس، دنت منّي ثمّ أردفت تقول بصوت مرح:

- مزعج أنت حقيقة، كفاك سخريّة وسلّمني سيرين لألبسها.. هيّا لكي لا نتأخّر، السّاعة تشير إلى العاشرة والنّصف صباحا...
- ما شاء الله، انظري، انظري ،كيف طارت من الفرح وكأنّها تعلم بأنّها ستقابل جدّيها..
- تبارك الله عليك بنيّتي. تعالي يا غزالي الشّريد، تعالي واذرفي مطرا على جفون الصّحاري، تعالي وذوبي بين خطوط يدي، تعالي إلى أمّك كي تلبسك وتجعلك أجمل عروس في الدّنيا..
- خذي عنّي هاته الحلوة، لأنّها لو بقيت عندي سأهضمها كما نهضم العسل، سنزور والديّ في طريقنا.
- بالطّبع عزيزي.. سنذهب.

تجمّعت العبرات في عيني، فحوّلت رأسي لأكتم دمعة محرقة أنزلتها أحاسيس الشّوق والحنين من على أجفاني بالقوّة، فاقتربت فاطمة منّي واحتضنتني بقوّة كبديل للحروف الّتي تعجز عن تخفيف وطأة الشّوق على أحاسيسي، أحيانا كلّ ما يحتاجه الإنسان حضن، حضن يكون كفيلا عن ألف كلمة قد تقال، حضن يرسل سهامه مباشرة لشغاف القلب، بأحاسيس الحبّ، الحنان والعطف، ابتعدت عنّي ثمّ أمسكت يدي وأردفت تقول:

- عزيزي.. كلّ شيء بقدر، رحمهما الله وأدخلهما فسيح جنّاته يا ربّ.. أمّي خديجة هي شهيدة بإذن الله عزّ وجلّ، هي معنا أكيد في المنزل ..
- آمين يا ربّ، نعم معك حقّ، إذا كفانا حزنا ، وابنتك الصّعلوكة تعبث بهاتفي، هيّا اجعليها كالعروس يوم زفافها، وسأجهّز نفسي أنا أيضا.
- حاضر حبيبي.. سيرين.. هيّا يا أجمل طفلة من أجمل زوج في الدّنيا. ما أجمل إبتسامتك...!

***

ابتسامتك...

كانت كلّما ضحكت في وجهي،

انغلقت براعم عيونها خجلا وحياء،
وتفتّحت أبواب قلبي حبًا وأملا،

وفاضت شراييني فرحا وسرورا،

وكانت كلّما ضحكت لغيري ،
تزايدت جرعة غيرتي امتلاء،

يا ابتسامتي !
لكم أغار عليك منهم ،
يا ابتسامة !
تحارب مواطن صدري كسرطان جميل،
يا ابتسامة!
لكم أشتاق لنسماتها، لكي تداعب حدقتي يوميًا،
يا ابتسامة!
لكم أصبحت ذرّات هواء أستنشقها يوميًا ،
وإن غابت عنّي تجرّعت اختناقا ،
ابتسامتك يا أنتِ،
مثيرة لذرّات شغاف قلبي ،
شاعلة فتيل حرب عالميّة ثالثة،
حرب تعلن انطلاق معركة بيننا ،
معركة بين حبّ وتفاؤل،
بين عشق وأمل ،
بين حنان وجنون ،

بين رجاء وفتون ،
ابتسامتك،
تزعزع قفصي الصّدري،
وتحاول بكلّ حبّ اختراق روحه ،
مستنزفة بذلك كريّات صمودي .
ابتسامتك...
تخطو خطواتها بثقة لمحطّة قلبي،
تتسلّل عبر شراييني كسرطان لطيف ،
يكسر كلّ من يعترض طريقه،
ضلوعي، عظامي، وحتّى أحاسيسي ...
يرهق جسدي، بعد أن يتوضّع على عرش قلبي بمملكته،
ابتسامتك...
أيّتها الجميلة كجرعة أمل،
كجرعة غيرة ،
كجرعة حبّ بين النّفوس..
لكم أكره تلك اللّحظة حينما تداعب نسماتك غيري،
لكم تغلي نار الحقد بصدري، إن قدّمت ابتسامتك لغيري،
ابتسامتك...
تنسيني الحروب والأحزان، وتمنع عن عيني العبرات،
لكم تنزع غشاء الأسى من على شغاف قلبي،
كعود ثقاب يحرق ذرّات التّعاسة ،
ويجعل رمادها سرورا ،

دخّانها أمل،
ولهيبها سعادة ،
ابتسامتك..
إلهام ، كقمر أسود في كون مبتدع ،
حنان ، كشمس بيضاء في مجرّة سوداء ،
جمال ككوكب درّيّ في كون متسارع ،
وفاء كورود حمراء في أفق صحراء ،
حبّ من أوّل نظرة،
عشق من أوّل بسمة،
شغف من أوّل ابتسامة وجنة..
نيران هيام بين دفتي جنّة.

*****

مرّت سنة ونصف بلمح البصر، منذ قدومنا إلى الجزائر، تاركين كلّ شيء وراءنا، جاعلين الماضي التّعيس في أقصى ركن بذاكرة النّسيان، رسمنا أوّل نقطة بمضمار حياة، بعثنا لها من جديد منذ ولادة طفلتنا سيرين، وقرّرنا إكمال حياتنا بالجزائر بعد أن قبلت في وظيفة تدريس بجامعة الجزائر.

يا ليت أمّي معنا، لتشهد على حفيدتها سيرين الّتي أدخلت البهجة والسّرور على قلوبنا، وأنارت ظلمتنا بعد فقدان أمّي الّتي طالما تمنّت أن تصبح لها حفيدة تعوّضها عن ابنتها الّتي لم تولد، لكن شاءت الأقدار أن تزهق روحها بلا أيّ ذنب...

نقلت جثّة أمّي إلى الجزائر العاصمة، ودفنتها بجانب أبي رحمهما الله وأدخلهما فسيح جنّاته، وسكنت وفاطمة في منزل أبي رحمه الله، قبل أن تولد سيرين و بعد نصف سنة منذ قدومنا إلى الجزائر... هي الآن بعمر السّنة... أطال الله عمرها يا ربّ..

أمّا بخصوص الجماعة الإرهابيّة تلك، بقيادة الشّيخ أبي بغداد، فقد تمّ القضاء عليها وقتلوا جميعا، إلّا أبو القاسم الأمين الّذي أدخل السّجن لمدة عشر سنوات، لكن للأسف كما كان متوقّعا، فإنّ هاته الجماعة لم تكن سوى قطرة من كأس...

إرهاب جذوره مغروسة في تراب العالم، مكوّنة من شبكة إرهابيّة كبيرة، تنشط في الخفاء بدعم من مقرّ داعش بالعراق وسوريا، وبدعم أوّل من أمريكا، فللأسف تمكّنت الجماعة الإرهابيّة من تنفيذ الهجوم الّذي كانوا بصدد التّخطيط لتنفيذه سابقا، للأسف وجدوا غيري من ساعدهم في صنع المتفجّرات الكيميائيّة الّتي استعملوها في أكبر هجمات دمويّة شهدتها فرنسا منذ الحرب العالمية الثانيّة وأكثر الهجمات إراقة للدّماء في الاتّحاد الأوربيّ منذ تفجير قطارات مدريد سنة 2004.

حيث أنّه بتاريخ 13 نوفمبر 2015، قامت الجماعة الإرهابيّة المنتشرة في فرنسا من شنّ هجمات منسّقة على أماكن متفرّقة من العاصمة باريس، فقد شملت هاته الهجمات أربع عمليّات إطلاق نار جماعيّ، واحتجاز عدّة رهائن في أماكن متفرّقة من باريس شملت مسرح الباتاكلان، وشارع بيشا وأليبار، وشارع دي شارون،

بالإضافة لأربع عمليات تفجير انتحاريّة باستخدام الأحزمة النّاسفة والسّترات الانتحاريّة الّتي تستخدم بيروكسيد الأسيتون كمادة متفجّرة، وذلك تمّ في ضاحية باريس الشّمالية، وتحديدا بمحيط ملعب فرنسا، أثناء مباراة ودّية بين فرنسا وألمانيا.

لتسفر هاته المجزرة الوحشيّة، عن مقتل مئة وثلاثين شخصا، بينهم جزائريان بالإضافة لإصابة 415 شخصا.

بعد ليلة فقط من الهجمات، وفي بيان باللّغة الفرنسية، خرج تنظيم الدّولة الإسلاميّة المدعو داعش عن صمته وكشف الغطاء عن منفّذي الهجمات، حيث أنّهم اعترفوا بمسؤوليتهم وتبنّيهم للهجمات، موضّحين بأنّ تنظيم الدّولة قد استهدف عاصمة الرّجس والضّلال الّتي تحمل راية الصّليب في باريس، وأنّ هاته الهجمات ماهي إلاّ زوبعة لعاصفة قادمة أقوى.

ردّا على هاته الهجمات الوحشيّة، تمّ إعلان حالة الطّوارئ في فرنسا، لأوّل مرّة منذ أعمال الشّغب سنة 2005، لتطلق فرنسا أكبر سلسلة ضربات جويّة متمثّلة في حملة قصف ضدّ أهداف تحوم حول نطاق داعش، في كلّ من سوريا والعراق.

بعد خمسة أيّام فقط عن الهجمات، تمّ الإعلان عن مقتل المشتبه به الأوّل الإرهابي البلجيكي عبد الحميد أبي عود الّذي أدين بحقّه تدبير الهجمات الإرهابيّة، بعد عدّة مداهمات شنّتها الشّرطة الفرنسيّة بضاحيّة سان دوني بباريس.

اشتعال فتيل الحقد والعنصريّة ضدّ المسلمين، كان أكثر عنصر مميّز للهجمات الوحشيّة، فلقد كانت هاته الهجمات بمثابة القطرة الّتي أفاضت كأس الحقد الدّفين ضدّ المسلمين، فقد وصف الأوربيّون والعالم أجمع المسلمين بأقذر الصّفات، ناسبين لهم الأعمال الإرهابيّة..

حيث أنّ العالم أجمع، شارك في مظاهرات ضدّ المسلمين خصوصا في البلدان الأوربيّة الّتي دعت إلى طرد المسلمين بلافتات 'فليطرد المسلمون' تنديدا للهجمات الوحشيّة على باريس... لكن بالله عليكم بأيّ ذنب أقحمتم المسلمين في أعمال إرهابيّة مموّلة من قبل أمريكا؟

ما الّذي فعله المسلمون لكم، لكي تحملوا في صدوركم كلّ هذا الحقد والبغض ضدّهم؟ بأيّ ذنب سمّيتم المسلمين بالإرهاب وتركتم جميع الدّيانات؟

بأيّ ذنب تزهق أرواح بريئة تحت غطاء الإرهاب ؟ ما ذنب المرأة الّتي تستغلّ من طرف الإرهاب كوسيلة في زواج تعسّفيّ؟ ما ذنب الرّجال الّذين يلعب بأمخاخهم ويعتقدون بأنّ الجهاد في سبيل الله هو قتل الأبرياء...؟

ما ذنب المرأة الّتي يسلب منها زوجها من طرف الإرهاب، فترمّل في سنّ مبكّرة؟ ما ذنب الأطفال الّذين يشرّدون في الشّوارع بسببكم؟ ألا يستطيع أحد أن يوقفكم؟ أتعتقدون بأنّكم فوق

الجميع؟ صدقا بالله، لو كنتم فوق الجميع، فالله تعالى فوقكم.. ولا يظلم ربّك أحدا.

*****

غالبا ما نحزن كثيرا على أشياء لا تستحقّ منّا أن نلتفت إليها مجرّد التفاتة بسيطة، فلو تمعّنا قليلا لما نفقده يوميّا من أشياء تكون بين أيدينا، لذهلنا من حجم الخير النّاجم عن فقدانها، ألم يقل جلّ في علاه "فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا"...

فلا البكاء على أطلال بيت أصبح في زمن كان، ولا ذرف دموع حسرة، أو استخراج شهقة من أنفاس مفجوعة لمغادرة من لم نتوقّع مغادرته أصبح نافعا!

كثيرا ما نقلّب شريط الذّكريات بين اليوم والأمس، ونتذكّر من فارقنا، بعضهم ينسحب بهدوء، كما تنسحب الغيوم من السّماء في وجود أشعّة الشّمس، وآخرون يسلبهم منّا ملك الموت، كما تسلب الحروب سكينة الشّعب.

كثيرة هي المواقف الّتي تستدعي شكر الله على الدّوام، حين يشعرنا بأنّه يدبّر الأمر، فما كسر الله قلب عبده إلّا ليجبره بما يستحقّه، فالله تعالى لا يعطي عبده إلاّ ما يحتاجه، ولا يمنع عنه لخير آت... فحينما يثق المرء بقضاء الله وقدره، يستشعر حقيقة جمال ما يملك، ويحمد الله على كلّ شيء بين يديه...

- أترين يا طفلتي؟ هنا ترقد أمّي، جدّتك خديجة، الّتي طالما تمنّت أن تكون لها طفلة، فلم يرزقها الله طفلا غيري أنا، لكن رزقها بعد حوالي عشرين سنة بأجمل طفلة قد تملكها الأمّ، أمّك فاطمة، رزق الله جدّتك ابنة، وزوجة ابن وأختا، لكن قدّر الله وما شاء فعل، انتقلت إلى رحمة خالقها قبل رؤيتك، وهذا يا سيرين هو قبر جدّك عامر رحمهما الله وأدخلهما فسيح جنّاته...
- عزيزي، ضعها في عربتها لنقرأ عليهم الفاتحة...
- نعم، بسم الله الرّحمان الرّحيم .....
- هيّا يا غزالتي، والآن سنقابل أبويّ، هما في الانتظار...
- سأفتح باب السّيارة، احملي سيرين وأعطني العربة لكي أضعها في مؤخّرة السّيارة...
- على بركة الله .....

*****

ساعدت فاطمة في حمل سيرين للجلوس في المقعد الأمامي ثم توجهت لمقعد القيادة واضعا مفتاح السيارة في مكانه المخصص...

وما إن ضغطت على البنزين وأقلعت السيارة حتى تحدثت فاطمة في صوت مريب:

- عبد الهادي ..... !!!

- نعم عزيزتي، مابك ؟
- هل لمحت ذاك الرجل الملتحي الذي كان واقفا عند شجرة الصنوبر على بعد حوالي خمسة أمتار يسارا؟
- لا.... ولما؟
- هه..... تذكرت الإرهابي أبا القاسم الأمين....
- ماذا..... !؟ ما الذي..... !!!

ليست النهاية، ولم تكن يوما كذلك.....